# نقــرة إعجــاب

# نقـــرة إعجـــاب

## مجموعة قصصيـة

إدريـس شريفـي علـوي

# نقـرة إعجـاب

## مجموعـة قصصيــة

اسم الكاتبة: إدريس شريفي علوي
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية للنشر والتوزيع
تصميم الغلاف: أحمد فخري الأسواني
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٣٩٨٣ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

**إن لم تكن الكتابة مساءلة للو اقع، بكل تعقيداته،**

**فهي تهميش له وتحييد.**

**السؤال: هل ينقل الكاتب الو اقع أم عليه أن يتجاوزه؟ كيف؟**

**تلك هي إشكالية الكتابة القصصية.**

**إدريس الخوري**

# نــقرة إعجــاب

مللت حياتي، وبدأت أشعر أنني أجري وراء حلم هارب. الكل يحدق بي. همهماتهم تخرق أذني، وتحرق قلبي. كلماتهم تهوي بي من عل كالذي يتخطفه الطير، ويلقي به من كبد السماء.

أصبحت لا أدخل العالم الأزرق إلا لغاية واحدة، أسترق خطواتك وسكناتك. أغير لنقرة إعجاب هنا، وآخذ قرطاسا وقلما لتحليل تعليق دونته هناك. ولا أرى في العالم إلا صورتك التي سرقت مساحات مرتادي هذا العالم جميعهم؛ فصاروا نسخة من تلك الصورة التي التقطتها لك بنفسي.

حين تنقر على زر الإعجاب لمنشور لي أو صورة، أرى في الأفق قسمات أبنائنا الذين يقاسمونك وسامة السحنة. وحين تشير إلي في منشور، ساعتها أحسني متربعة على عرش قلبك بفستاني الأميري، وتاج الزمرد المتلألئ في ألوان الطيف.

استغربت لما غبت عن العالم الأزرق والعالم الآخر، فلا ألم يعدل غيابك عن ناظري. أين صورك التي أحالت الزرقة خضرة بطلاتها؟ أم أين البسمة التي تشفي كل عليل مررت ناظرها عليه؟ رباه ما هذا الذي جرى ولماذا جرى؟ ما الذي اقترفته يداي كي يضعني في لائحة الغياب وهو الحضور كله؟

ضحيت بكل شيء لأجلك. تحملت نظرات الصغير والكبير التي تخترق عذريتي. عشت في الغربة والألم وحيدة بصبابتي، متفردة بكآبتي، منزوية بعنائي. حرمت نفسي كل ملذات الحياة كي أبقى في الصورة التي رسمتها ريشتك لي. أحلتني من الفتاة المدللة المتعقبة لآخر علامات الموضة إلى فتاة لا تأبه لمظهرها، ولا لقلبها الذي ما عادت تملك مفاتيحه مذ سلمته لك فأحكمت عليه الإغلاق.

مر شهر على الغياب. شهر طويل بلياليه و أيامه، ببرده وحره، دون أن يظهر للغائب أثر. اختفى بعدما بدأت أعتاد دور السندريلا، فرماني بغيبته في ردهات سجون "جافير". لا ذنب لي غير ضعف قلبي الذي سلمته له فارتكب به أفظع الجرائم، ونطق القاضي بحكمه عليه وهو لا يدري أن الذي يقضي عليه بحكمه هي أنا لا هو. أليس السجن سجن الأرواح قبل الأجساد؟ ألم تنر الحكمة الأوربية العقول، وحطت من طينة الإنسان وعلت بقلبه وعقله اللذين يسمو بهما في مدارج السعادة، كما قد يهوي بهما في مكان سحيق.

آذى الغياب جسد السندريلا الذي نحل؛ فلا الطعام أصبح يجد طريقا لمعدتها الخاوية؛ ولا النزهة ونسيم الربيع يستهويانها للخروج من وحدتها. كانت تدرك أن خروجها من عزلتها قد يزيد حالتها سوءا؛

فكل صوت يشبه صوته، وكل بسمة تحاكي بسمته، ستشكل لا محالة قطرة السم الأخيرة الذي ألفت تجرعه منذ غيابه.

رق فؤاد الأم لحال ابنتها وهي ترى فلذة كبدها تتساقط أور اقها الساعة تلو الساعة. ما ظنت أن شابة بجمالها وحيويتها ونضارتها ستستحيل حياتها كآبة وحزنا، ويغدو وجهها شاحبا متأملا في الأفق كالذي ينتظر حمام السلام عله يحمل كتابا يعيد الأمن لدواخله التي غدت أرضا يبابا بعد الدمار الذي شهدته؛ كل ذلك بسبب طيف عابر كان اللقاء به عبرة نقرة إعجاب. كانت تعرف الشاب صاحب النقرة الذي

تعلقت به ابنتها. لقد ربتها منذ طفولتها أن تبوح لها بكل شيء يخص الجزء الخفي من حياتها؛ فهي والدتها وأحرص الناس على مصلحتها، ولن تدخر جهدا في نصحها. كانت تعاملها معاملة الصديقة؛ لربما كان لعامل السن سبب في ذلك. فقد كانت تكبرها بتسعة عشرة سنة فقط.

كرهت وحدتي وفكرت أن أضع حدا لحياتي. لكنني فكرت في قلوب مكلومة سأخلفها ور ائي بأنانيتي، وهي التي نذرت حياتها لإسعادي. كم أحسست بالذل والمهانة ووالدتي تتصل به عشرات المرات في اليوم بعد إلحاحها علي بأن أمدها برقمه. أحسستني ساعتئذ طفلة صغيرة يبحث لها الكبار عن لعبة تسليها، وتوقف دمعاتها، وصراخها المنطلق في كل الأرجاء.

خفت أن أكاشف أمي بما يدور في رأسي، فتذكرت أنها قارئة الفنجان التي تعرف ما يدور بخلدي حتى قبل أن أنطقه، وليس حكيي غير حبل وصل قطعت عهدا ألا أصرمه بيني وبينها. قطعت مسلسل أفكاري كأنها ترمي بطوق

النجاة الأخير: - بنيتي.. لا جدوى من الاتصال فالهاتف غير مشغل.. غداً بحول الله سأبحث عن عنوانه.

- لا يا أمي.. أرجوك (ارتمت في حضنها باكية وقد قطعت الأنفاس كلماتها. أرادت أن تقول الكثير فما استطاعت).

أشرقت علي شمس اليوم الموالي. كانت عيناي مسمرتان على السقف متأملة في زخرفاته التي تحاكي تموجات البحر. آه ما أحوجني إلى الغرق في موجاته التي تراقص عشاقها! تحتفظ بهم، ولا تتخلى عنهم إلا تحت إلحاح الأهالي الذين يتوسلونها، ويتضرعون، فيرق قلبها، وتسلمهم راقصها غير منكرة لحفلة الرقص تلك التي عانقت فيها العشيق بكل قوة. قطع صوت محرك السيارة تفكيري وتأملاتي. ألقيت نظرة من النافذة فإذا هي أمي تغادر بالسيارة. عبثا حاولت معها؛ لقد فعلت ما فكرت فيه، وها هي ذي تتيه في الشوارع بحثا عن الإنسان المجهول في العنوان المجهول.

عدت إلى عالمي الأزرق الذي هجرته يائسة منذ أسابيع. كنت أؤمل نفسي أن أتخلص من جاذبية هذا العالم راضية بعدما سلبني هويتي وسرقني من أهلي. لكن ها أنا ذي أتخلص منه مكرهة بعد أن رماني خارج أسوار مدينته الفاضلة. عدت أقرأ ميثاق الانتماء إلى هذا العالم الذي صاغه رئيسه "مارك" المفدى. فوجدت:

- "عالمي أقمت لبناته الأولى رغبة مني في استعادة الحياة؛ حياة أولئك الأصدقاء الذين شاركوني فصولا من حياتي. فعلى الراغبين في الانضمام إلى جمهوريتي الفاضلة الالتزام بواجبات الصداقة. وأي خروج عن هذا الاتفاق سيعرض صاحبه للعقوبة".

آه ما أغباني ! لماذا لم أقرأ قوانين هذا العالم قبل اقتحام أسواره؟ وأية جاذبية تلك التي تستوطن أراضيه؟ يا ليتني لم أقع في هذا الخطأ الجسيم. هل ينفع الندم؟ أم فهل ينفع التوسل والتضرع لصاحب العرش كي يعفو بعفوه. اندفعت بلا تردد، ونقرت على نافذته. سمح لي بالدخول. جثوت على ركبتي

راجية سائلة إياه أن يفتح قلبه لبث شكواي، والظلم الذي حاقني في مدينته الفاضلة على غفلة مني، دون أن تكون لي نية خرق القوانين التي قامت على أساسها هاته الدولة العظمى. أشاح بيده كالعاطف على رعاياه مومئاً إلي بالتكلم.

" سيدي ومولاي، جئتك اليوم فلا ترد طلبي خائبة. أنت العاطف على رعاياك. أسالك أن تغفر زلتي. سحرني عالمك فولجته دون أن أقرأ مواثيقه. وها أنا ذي أدفع الثمن غاليا؛ فقد حاق بي ما حاق. هزلت، واكتأبت، وفكرت في الانتحار. فهل إلى عفو من سبيل؟"

بدا لي بعد بث شكواي متأثرا لكلماتي. طلب مني الانسحاب من القاعة قليلا للتشاور مع مستشاريه، والبت في شكواي. هممت بالخروج من القاعة ونظرات التوسل إلى ملك العرش ومستشاريه كي يعفوا عن زلتي. قرأت في كتب القانون أن القانون لا يحمي المغفلين.

لكنني لست مغفلة بل طيبة. فهل القوانين لا تحمي الطيبين أيضا؟ انتظرت خارج القاعة ونبضات قلبي تتسارع. مر علي الوقت بطيئا كجلمود صخر وضع على كتفي، وطلب مني الصعود به إلى قمة الجبل. بعد طول

انتظار فتح باب القاعة وأذن لي بالدخول. دخلت متثاقلة خائفة من الحكم الذي سيحدد مصير حياتي.

نبس ملك العروش في أذن مستشاره الأيمن فالأيسر. نظر في ورقات موضوعة أمامه وقال: " بعد الاطلاع على ملفك في عالمنا، والاستماع إلى شكواك، وأخذا برأي مستشارينا المحلفين، قررنا نحن رئيس العالم الأزرق العفو عن خطئك مع الاحتفاظ بملفك. وعليه، نصدر حكمنا القاضي بسحب جميع نقرات الإعجاب التي جاملتك طيلة مدة إقامتك معنا، وجميع الصور والتعليقات سواء تلك التي شاركت بها، أو تلك التي تمت الإشارة إليك فيها، ولا يسمح لك بالعودة إلى عالمنا إلا بعد مضي سنتين متتاليتين من تاريخ حكمنا هذا".

ما كاد ينهي الرئيس المفدى كلمته الفصل حتى أحسست بجريان غريب للدم في عروقي. شعرت بجسدي وقد بعثت فيه الحياة من جديد. إنها النقرة المعلقة على شجرة العالم الأزرق، أو هي النفاثات في عقده. أبطلت كلمات مارك السحر المفروض على السندريلا. تخلصت من قيودي، و انطلقت في أرجاء البيت وحديقته أرقص بفستاني الأبيض على أنغام أغنية " الله على راحة الله".

## وهم الشـــهادة

ما من أحد رآه وهو يتسلل من بيته في الليلة المتفق عليها. ما من أحد ظن أن هذا الشاب الهادئ سيركب فلك الغرق. ولكن، بعد بضعة أيام سار الخبر كالنار في الهشيم. إن الشاب الذي يلازم بيت الله وبيته، اتبع السراب، و ابتغى جنة الخلد التي نظرها ولم يراها.

أيقظه منبه الأذان المنبعث من هاتفه الخلوي. صلى رغيبتي الفجر وتضرع إلى مولاه أن يكون عونه فيما هو مقبل عليه. كان يعرف أنها قد تكون صلاة الفجر الأخيرة التي يؤديها. لكن، لا بأس بذلك إن كانت دليله إلى فردوسه المنشود. آمن أن واجبه تجاه الأمة هو أن ينفذ خطته هذا اليوم.

خرج من البيت وقت صلاة الفجر حتى لا يلاحظ رجال القرية غيابه عن صلاة الجماعة التي ما غاب عنها يوما. تناهى إلى سمعه صوت الإمام الشيخ الكبير الذي لم تجمعه معه صلة. شعر بقشعريرة الخوف التي زادتها برودة الفصل. لكنه صك أسنانه، واستجمع قواه، وتقدم نحو هدفه الذي لن يثنيه عنه شعور.

لم يكن الهدف الذي ساقته الجماعة إليه سهلا، ولا جزاؤه محسوسا، بل كان غيبيا. حور عين مقصورات في الخيام كأنهن الياقوت والمرجان. حلم بالكواعب الأتراب والكأس الدهاق وخمر لذة للشاربين. ألا يستحق هذا الجزاء منه تقديم حياته قربانا؟ تملكه هذا الجزاء المغري، وأخذ بلبه حتى إذا سأله رجل من أهل القرية أن يتخير من بنات القرية أجملهن، وأتقاهن، وأعرقهن نسبا، ما استطاع أن يأتي بجواب ولا إشارة. ناسب هذا الجزاء تطلعاته لأنه لم ينعم من دنياه بالكثير.

في البداية كانت أحلامه كأحلام سائر الشباب في عمره. كان يتوق إلى الاقتران بفتاة مسلمة ذات تربية حسنة وخلق كريم، وينجبا معا أبناء يكونون زيادة في الإسلام؛ يملؤون عليهم البيت بقفشاتهم ومشاكساتهم. لكن هاته الأحلام تغيرت في فترة قصيرة منذ التقى شابا في مسجد القرية المجاورة. حدثه عن الفساد الذي استشرى في البلاد، وعن البنات الكاسيات العاريات المائلات المميلات اللواتي لا ينطقن الراء إلا بما تقتضيه قواعد التجويد والترتيل؛ كي يوقعن الشباب في شراكهن. حدثه عن الحانات التي أصبحت مزار الشباب والشيوخ من أبناء الأمة. حدثه عن الكباريهات، وحفلات الجنس الجماعي، ومظاهر الشذوذ التي عمت بلاد الإسلام والمسلمين. ألقى عليه هذا الشاب محاضرة في الأخلاق، والقيم الإسلامية، وأمراض الأمة التي يجب اجتثاثها من جذورها حتى لا تستشري في مناطق لم تصبها عدوى الداء بعد. أصغى إلى الشاب بلهفة. حاول الإجابة والتعقيب فعقد لسانه وما استطاع. تركه في حيرته وقلقه. غادر القرية ومسجدها وصور الواقع التي التقطتها عدسة الشاب المحاضر تأخذ موضعها في تفكيره.

شكل تجاور الصور فلما قصيرا مهيأ السيناريو تلزمه ريشة رسام، أو لمسة مخرج كي يحطم كل الأرقام، ويحقق أعلى نسب المشاهدة.

بعد عودته إلى البيت، تأمل فيما قاله الشاب وتدبر. أدرك بنوع من المرارة أنه مسؤول عن هذا الو اقع المأزوم. اعتقد أن تغيير الحال ليس محالا شريطة أن يأخذ كل واحد بمهمته التي وكل إليها، عسى الباري أن يحدث بعد ذلك أمرا. كان يعلم أن تشكيل المادة المتفجرة التي تبعثه إلى مرقد آماله

الفردوسية ليس أمرا هينا. فهو لم يكن بالتلميذ النجيب في دروس الفيزياء بالثانوية. لكن حتى لو استطاع أن ينفذ إلى أسرار تشكيل تلك الكتل القاصمة؛ فأي الأماكن تلك التي تحتاج أكثر من غيرها تطهيرا من الدنس الذي لوث طيبها الأول؟ رأى أن محاضرة الشاب ذي اللحية الكثيفة أوقعته في هلوسة محبطة، وأنها أبلغت لكن ما أمتعت، ونورت فما قدرت؛ لذلك قرر العودة إلى مسجد القرية المجاورة، لا للصلاة، وإن كانت ستأتي بشكل عرضي في زيارته، بل للغرف من معين الشاب المحاضر كي يفتح عينيه على أمور مستغلقة، ويقدم الجواب الشافي الكافي الممتع المقنع الجامع المانع لأسئلته التي أحالت رأسه أفكارا مشتتة تستعصي على الجمع والترتيب.

ضبط منبه الهاتف على الساعة الثالثة صباحا قبل أذان الفجر بساعة. توضأ وصلى ركعتين وهم بالخروج من منزله كي يدرك صلاة الفجر في القرية المجاورة حيث الإجابة عن أسئلته الكثيرة. كانت القرية تبعد عنه بحوالي عشرين كيلومترا. اتجه إلى محطة سيارات الأجرة فكان محظوظا أن وجد سيارة أجرة تنتظر راكبا واحدا كي تنطلق إلى وجهتها. ركب السيارة،

وتفرس في الوجوه التي بدت عليها علامات الحيرة والقلق. لم تستطع حلكة الظلام الدامس أن تخفي علامات التوتر البادية على محيا الركاب. وحده سائق السيارة كان يتحدث هنا وهناك دون أن يلقى تجاوبا. بعدها، التزم الصمت هو الآخر درءا للحرج الذي وقع فيه.

وصلت سيارة الأجرة إلى القرية. نزل الركاب منها تباعا، و اتجهوا شطر الشمال جميعهم حيث يقع مسجد القرية. اتجه شطر المسجد هو الآخر، وما عاد يفكر في هؤلاء الشباب والأسئلة التي خلفوها في خلده؛ ففي ذهنه من الأسئلة ما يغنيه عن إضافة أية تأملات جديدة، أو أسئلة متجاورة، أو تأويلات محتملة.

دخل المسجد، وتناهى إلى سمعه صوت إقامة الصلاة. أخذ مكانه بين الصفوف. حاذى بين المناكب والأقدام. سد الفرج حتى لا يترك مكانا للشيطان، وقبض يديه إلى صدره، وسمر بصره في موضع سجوده. خشع مع قراءة الإمام في لحظة انسلاخ النهار من الليل. تلا الإمام في الركعة الأولى آيات من سورة آل عمران " ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون". سافرت به هاته الآية إلى الجزاء المنشود حيث الحور العين خير من بنات القرية وما يجمعون. سرح في صلاته وما سمع ما تلاها من آيات، وما عاد إلى مسجده إلا مع آيات الركعة الثانية من سورة النساء "ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما". اخترقت الآية السمع والقلب، ووقع مغشيا عليه كالذي تخبطه الشيطان من المس. هرول إليه المصلون بعد السلام. نظر بعضهم إلى بعض إن كان يعرفه أحد؛ فأشاح الشاب المحاضر بالإيجاب. أخذه معه إلى

بيته بمساعدة الشبان الخمسة الذين رافقوه في سيارة الأجرة. لما وضعه على السرير، أخذ قطرات من عطر قارورة برائحة المسك كانت فوق الطاولة المحاذية للسرير. فتح عينيه المثقلتين رويدا رويدا ثم عاد إلى النوم . مضت ساعات على نومه. استفاق فتفرس في الوجوه المحيطة به. وجد الشاب المحاضر مبتسما عن يمينه، والفتية رفاق الرحلة عن يساره. استجمع قواه، وقام قومة مفاجئة سرعى كالذي وخز بصولجان في ظهره. تسمر الشباب من الذهول فما استفاقوا إلا والشاب قد غادر البيت راكضا حافي القدمين. وقرص الشمس يوشك على الضمور من كبد السماء.

لم يتوقف إلا عند محطة السيارات رغم التثاقل في الحركة الذي أحسه وهو يركض من بيت الشاب المحاضر. شيء ما أثقل جسمه دون أن يدرك ما هو. كان هذا الشيء يعتصر أضلاعه حتى لا انفصال منه ولا فكاك. فكر أن للأمر علاقة بلحظات الغيبوبة التي أفاق منها قبل لحظات. أيا كان الأمر، المهم عنده أنه تخلص من أثقال كانت تجثو على صدره. آه كيف وقعت عليه تلك الآيات في المسجد. كان كمن لم يسبق له سماعها ولا قراءتها. هو التدبر الذي خانه في ترتيلاته القرآنية السابقة؛ فحال دون وقوفه على معاني الآيات، وما درى أنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. استغفر لذنبه وناجى ربه وركب السيارة التي تقله إلى قريته؛ حيث سيختار فتاة من بنات القرية يتزوجها ويبني معها بيتا على تقوى من الله.

اعتصر الألم جسده، لكن ما هي إلا دقائق معدودات ويصل منزله، ويخلع عنه أصفاد الإرهاق، ويخلد لنوم عميق قبل الإقبال على حياة جديدة

ملؤها السعادة والرضا. وصل القرية. اتجه إلى منزله وكانت الطريق خالية ساعتها من الناس. دلف منزله و اتجه إلى غرفته. بدأ في نزع ثيابه كي يأخذ حماما يزيل به تعب الرحلة الشبح. فتسمرت عيناه الجاحظتان من هول ما رأى. رأى حزاما ملفوفا على خصره يعتصر ضلوعه كالعشيقة التي لا تنفك عن عشيقها. فهم الآن أن حركته المتثاقلة في الركض كانت بسبب هذا الوبال المربوط على جسده. لاحظ ورقة صغيرة معلقة على رباط سرواله. أخذها بحذر ووجد عليها: إنها فرصتك للفردوس الأعلى. "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمو اتا بل أحياء عند ربهم يرزقون".

تعالت طرقات على باب غرفته:

- أفق يا بني. إنه وقت صلاة الفجر. قم فليحفظك المولى؛ فمن صلى صلاة الفجر في جماعة كان في حفظ الله حتى يمسي.

تناهت الكلمات الحلم/ الحقيقة إلى مسمعه. نظر في خصره فوجد علامات رباط سرواله الذي نسيه على سريره؛ ففهم سبب الألم الذي اعتصر ضلوعه، وحمد الله أنه كان مجرد حلم.

# فرح الفيـس- اب

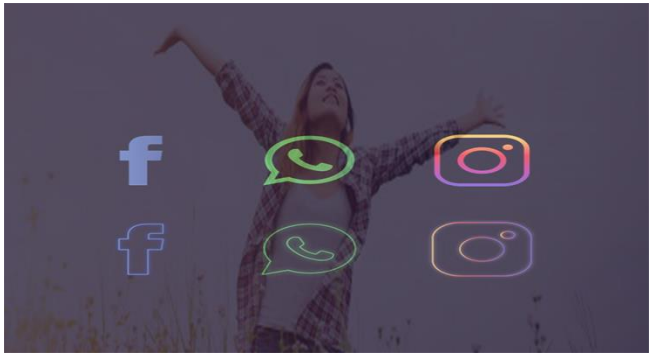

في شرفة المنزل جلست زرقاء اليمامة وبجانبها فنجان قهوتها الصباحي الذي ورث عن صاحبته سواد الشعر و انسيابه. كانت تحدق في هاتفها الخلوي وزرقة شاشته تنعكس على وجهها الصبوح. ازدادت بهاء بخيوط الشمس الأولى التي تغازل عينيها، لولا تلك السهام المنبعثة من شاشة الهاتف. كدرت طلقاتها تلك النضارة الطبيعية المشطورة من البدر. لاحت على وجهها علامات الاستياء وهي تلامس شاشته، وتصعد بها إلى الأعلى تارة وإلى الأسفل تارة أخرى.

كان خبر خطبتها يعلو صفحات العالم الأزرق، وعبارات التهنئة والتبريك تتقاطر على العروسين من المعارف والأصدقاء. خرجت بعض التعليقات عن أصول المقام لتبعث رسائلها المشفرة المطعمة بالسموم. قررت زرقاء ألا تحذف أيا من تلك التعليقات حتى لا تمنح لأصحابها فرصة

الاستياك بأخبارها والنيل منها. إن الأمر يقتضي منها الهدوء والتغاضي عن الدلالات الخفية لتلك التعليقات التي كانت تهدف النيل من هذا الارتباط بين زرقاء وخطيبها عبد الهادي المهندس المدني.

كان عبد الهادي شابا ملتزما ينحدر من أصل طيب المنبت، وأسرة عريقة عرفت بدماثة الأخلاق، وحسن السلوك، ولين الجوار. التحق بسلك الهندسة بعد أن أنهى سنتي التحضير بالأقسام التحضيرية للمدارس العليا. وكان طبيعيا لشاب مثله أن يطرق باب الزواج بعد تخرجه من سلك الهندسة. فكان أن اقترح على أهله زرقاء بنت الحاج علي. استغرب الأهل من اقتراح ابنهم خصوصا أن الشابة لم تكن ترتدي الحجاب الشرعي. لكنهم لم يمانعوا طبعا مادام اختيار ابنهم وحيدهم من الذكور، ومادامت الفتاة تنتمي لأسرة طيبة، وهي فتاة محترمة ولم يسمع عنها شيء ما يقدح في أخلاقها، أو يصيب عائلتها في مقتل. وأمر الحجاب الشرعي سيكون لابنهم دور في إقناعها بارتدائه.

لم تنتظر الأسرة طويلا لزيارة عائلة الحاج علي ومفاتحتهم في الموضوع. كيف لا يسارعون الخطى وهم ينتظرون هذه اللحظة منذ صرخة عبد الهادي الأولى في الحياة المبشرة بقدومه؟ تشكل وفد الزيارة من الأب الحاج أحمد، والأم الحاجة رشيدة، وأخته الكبرى فرح. استقبلوا بحفاوة حتى قبل أن يعرف سبب الزيارة. وزادت الحفاوة بعد أن أطلق الحاج أحمد العنان لكلماته مخاطبا الحاج علي:

- الحاج كنتعدرو على مجيئنا بدون موعد. ولكن إلى كتاب غانوليو عائلة وحدة ومنحتاجو مواعيد (ضاحكا)

- حاشا الحاج لا تقول هاد الهضرة. الدار داركم متحتاجو مواعيد قبلية.

- بارك الله فيك. إوا إلى قبلتو بنا جينا طالبين يد بنتكم لولدنا.

- لنا الشرف ا سيد الحاج ونا قابل بك بكل فرح. أي واحد إلا ويتمنى يناسب الحاج أحمد. ولكن سمح لي تجي البنت من الجامعة ونخبرها ويكون خير إن شاء الله.

- مرحبا ا الحاج. الشورى ضروري. إوا هانا كنتسنا جو ابك فالتلفون. ولا جوبني فالفيس بوك إلى عندك حساب ( ضاحكا).

يرد الحاج علي ضاحكا بدوره: الفيس بوك أعوذ بالله. وزمان هادا وشمن زمان ا الحاج والله إلى كيخلع. الله يجعل التالية على خيروصافي.

- آمين ا سيد الحاج. إوا خللينا لكم الراحة هاد الساعة.

- مع السلامة. شرفتونا

لما عادت زرقاء من الجامعة فاتحتها والدتها في الأمر، فاحمرت وجنتاها، ودخلت غرفتها مسرعة دون أن تنبس ببنت شفة. لما أغلقت باب غرفتها تراءت أمام ناظرها صورة الشاب الملتحي. إنه الشاب الذي ترسمت ملامحه في خلدها منذ مدة. على الرغم من أنها لم تكن بالفتاة المتدينة لكنها كانت حريصة على أداء الفرائض من صلوات وصوم، كما أنها كانت ذات خلق دمث، وسمت حسن يشي ببراءة لم تخدشها ثورة التكنولوجيا التي اجتاحت عقول و أفئدة شباب زمانها.

كانت زرقاء تعلم جيدا أن اقترانها بهذا الشاب يلبي كثيرا من طموحاتها وأحلامها. لكنها تدرك أيضا أنها لن تسلم من انتقادات صديقاتها المتفتحات اللواتي ينعتن كل شاب ملتح بالظلامي والرجعي؛ مستنكرات إمكانية العيش معه تحت سقف واحد. ازدحمت الأفكار وتطايرت شظاياها في خلد الفتاة. كيف لها أن تخبر صديقاتها اللواتي جعلنها سفيرة للجمال والأناقة؟ كيف لها أن تقبل بشاب سيجبرها لا محالة على ارتداء جلباب يخفي ما انمازت به من جمال؟ أين ستضع ملابسها الرائدة في عالم الموضة؟ أسئلة كثيرة لا تجد لها الشابة جوابا. لم يعد التردد مشروعا وقد أبدت موافقتها المبدئية على العرض القادم من الجار.

استلقت زرقاء على سريرها وأخذت نفسا عميقا. حاولت أن تصرف أفكارها عن هذا التردد الشيطاني الذي يراودها. كانت، بطبعها، تحس بخطأ العيش الذي تسير في طريقه، وضرورة الارتباط برجل يهديها سبل السلام، ويأخذ بيدها إلى بر النجاة والفوز بالدارين. فكرت بالمكسب الذي جنته من حياة الموضة، والأناقة، والرحلات مع صديقاتها؛ فما وجدت غير سنوات مسروقة انفرطت من عقد عمرها دون أن تتلذذ بصفوة العيش الهنيء. لكن لا بأس أن تتريث قبل عقد القران، وتجعل الخطوة الأولى خطبة فقط حتى تتعرف على عبد الهادي أكثر، رغم تلميح فرح لها بأن أخاها يستعجل أمر عقد القران حتى يملك الحرية في الاتصال بعروسه في عالميهما الواقعي والافتراضي، وبعد ذلك يأتي الزفاف في التاريخ الذي يناسب العروس.

أخذت هاتفها كي تسبح في عالميها الأخضر والأزرق. وجدت رسالة صديقتها دنيا على المارد الأزرق:

- مرحبا زرقاء، أصحيح ما بلغني من أمر خطبتك للمهندس الملتحي؟

- مرحبا دنيا. نعم هو كذلك. من أخبرك بذلك؟

- صديقتي سارة صديقة أخته فرح. هي من أخبرتني بذلك؟ استغربت وأردت التأكد من ذلك.

- وما سبب استغرابك؟

- كيف لامرأة حرة مثلك أن ترتبط برجل ظلامي رجعي يحرمك ملذات الحياة؟

- وهل الزواج برجل ملتزم بأوامر دينه يعد ذنبا؟ الذنب الحقيقي يا صديقتي هو أن نعيش عيشة الدواب نأكل ونتمتع كما تأكل؟

- وهل الدين يعارض التمتع بملذات الدنيا يا صديقتي؟

- طبعا لا، بل يحث على ألا تنسى نصيبك من الدنيا. لكن بلا إفراط ولا جرأة على حدود الله.

- ماذا عن لباسك؟ أتعلمين أنه سيلزمك بلباس يفقدك أنوثتك؟

- وهل فيما سنه الله لنا فقد لأنوثتنا. إن الحجاب تكريم للمرأة وحماية لها من شياطين الإنس والجن.

- غريب أمرك. من سمعك يظنك تسدلين جلابيبك عليك. رغم أنك رمز الموضة والأناقة في الجامعة.

- وقد أتى من يهديني، أفلا أكون أمة شكورة؟

قطعت دنيا اتصالها بزرقاء دون أن تودعها، ورأسها تكاد تنفجر من الصداع الذي سببته لها هاته الفتاة العنيدة. كانت تظنها سهلة المنال وبعزفها على وتر حريتها ستباعد بينها وبين الشاب الذي حلمت به زوجا لها. هاهو ذا يتقدم الآن لخطبة زرقاء ويبتعد عنها شيئا فشيئا. لم تفلح خطتها مع هاته الشابة العنيدة. هي تعلم جيدا أن عبد الهادي شاب طيب وخلوق وما سودته في عيني زرقاء إلا لتظفر به. لم تكن لتقبل أن يفلت هذا الجوهر من يدها بعد تخطيط أشهر. لطالما حاولت التقرب منه ولم تكن تتوانى في مصاحبة صديقتها لبيت فرح من أجل رؤيته علها تصيبه بسهم من سهام جمالها. أحست دنيا بخطورة الوضع. صار لزاما عليها أن تتدخل بسرعة، وتفكر في خطة بديلة بعد فشل الأولى كي توقف هذا المد الجارف الذي يعصف بقلبها، ويقذف بمشاعرها في بحر لجي. عاودت الإبحار في العالم الأزرق بوضعية عدم الاتصال، وأخذت من حائط زرقاء ما يعينها في حربها الضروس.

لم تستغرب زرقاء من كلمات دنيا الفتاة الغانية اللعوب. توقعت ذلك الموقف من صديقاتها جميعهن. لكن ما استغربت له هو الانقطاع المفاجئ للاتصال من دنيا دون أن تكمل محادثتها معها. أليس من الأدب أن تلقي التحية الوداع قبل أن تقطع المحادثة؟ لقد كانت تحس بشيء ما يثير غيض صديقاتها من حولها. فهي، وإن كانت تخرج معهن للتسوق، وترافقهن في بعض رحلاتهن إلا أنها لم تكن تقبل ببعض دعواتهن لحضور سهرات ليلية بمنزل إحدى الصديقات، كما لا ترافقهن في رحلاتهن المختلطة. وذاك ما كان

يثير حقدهن عليها. لماذا لا تخضع لهن وتصطبغ بأخلاقهن؟ كانت زرقاء تعيش سني شبابها دون أن تتخطى تلك الحدود التي رسمها لها الحاج علي.

مضت الأيام سريعا، وحانت اللحظة العظيمة التي انتظرها أهل العروسين على أحر من الجمر. اختلطت المشاعر عند الجميع بين فرحة الاقتران، وبناء صرح أسري جديد، و إنجاب الأبناء والبنات، وحزن الفراق، وخروج الشابين من البيتين الذين ترعرعا فيهما. رغم أن موعد الزفاف لم يحن بعد والمناسبة هي لعقد القران فقط إلا أن الإحساس بألم الفراق تسرب إلى العائلتين كما العروسين منذ تلك اللحظة. لاحظت خالة العريس تلك الكآبة التي علت وجوه الحضور، فأطلقت زغرودتها التي أعادتهم إلى أجواء الفرح والبهجة والسرور بلحظة لن تتكرر.

كانت فرح في أبهى زينتها وقد أخذت توثق اللحظات بهاتفها الذكي. صورة للعروسين، وأخرى للأهل، وثالثة لمائدة الحلوى. لم تدع أية لحظة تمر دون أن توثقها؛ فالذكرى وحدها تشدنا إلى لحظات الماضي الجميل. قطع تركيزها في تصوير الحفل رسالة صوتية عبر الوتساب وقد نست شبكة الانترنيت مشغلة. توقفت للحظة عن التصوير حتى تنظر ما الرسالة، وتوقف نشاط شبكة الانترنيت لئلا تسرقها من لحظة مميزة لا تتكرر. صدمت من هول ما رأت. تسمرت عيناها في شاشة الهاتف واصفر وجهها.

ما هذا؟ من التي في الصورة؟ و أية وقاحة وتفسخ هذا؟ لقد كانت الرسالة عبارة عن صورة عارية لفتاة. تفحصت فرح وجه الفتاة فذهلت لما رأت. إنها زرقاء. ما الذي دعاها لمغادرة مجلسها بجوار أخيها. فقدت فرح

صوابها. إن الفتاة العارية في الصورة هي زرقاء نفسها خطيبة الأمس وزوجة اليوم. يا رباه ! يا لهول الفضيحة ! تفحصت الرقم المرسل فما عرفته فقد كان رقما مجهولا. ماذا تفعل؟ كيف تتصرف؟ كيف تكدر صفو اللحظة؟ أيعقل أن تكون أخطأت في قراءة سمات البراءة والنقاء على وجه زرقاء؟ أكانت زرقتها موارية للغيوم الملبدة التي تمطر على مريديها مطر السوء؟ هل أخطأ أخوها في حدسه عندما اختارها؟

تزاحمت الأفكار في رأس فرح التي كادت تنفجر. لم يوقظها من سهوها إلا صوت أخيها:

- ألن تأخذ الفوتوغرافة صورة مع أخيها؟ أم أن الواجب استهواها، ونسيت حقوقها؟

ضحك الجميع لدعابة العريس. لكن فرح بقيت مسمرة في مكانها ما حركتها إلا دفعة من أمها جهة كوشة العروسين. طلبت منها بنت خالتها هاتفها كي تلتقط به الصورة. رفضت فرح بشدة، وطلبت منها أن تستعير هاتفا آخر للتصوير. لم تمكث جنب العروسين إلا لحظة لكأن جمرا حارقا يلفح جلدها. نبست في أذن أخيها بكلمة و انصرفت. تبعها عبد الهادي وهو يتساءل عن السبب الذي من أجله دعته أخته لمغادرة مكانه بجانب عروسه. لم تنبس فرح ببنت شفة. وضعت هاتفها بين عيني أخيها الذي نظر مشدوها إلى الصورة التي في الهاتف. أ هاته عروسه زرقاء؟ يا رباه ما هذا؟ إنها عارية ! أي بلاء هذا الذي أصبحت تحمله لنا هاته الهواتف الغبية؟ ما أغباها كيف تكدر صفو لحظات الهناء والسعادة في حياتنا؟ ألم تعلم أنها لحظة العمر مع إنسانة ظنها زوجة العمر؟ كادت رأسه تنفجر لولا ما أتاه من نور قرآني في

تلك اللحظة فتلاه جاهرا، وهدأ روعه، ونظر إلى الصورة فتبسم وأشاح بوجهه نحو فرح:

- ما هذا يا فرح؟ ومن أرسل لك هاته الصورة؟

- لا أدري فقد وصلتني قبل قليل من رقم مجهول. ماذا ستفعل الآن؟

- لا أدري. لكن يستحيل أن تقوم زرقاء بذلك. لقد استخرت الله قبل التقدم إليها. عشت حياتي في طاعة الله. ولا أظن بربي إلا خيرا. أ فيكون هذا جزائي من رب عادل؟ ألم تقرئي قوله تعالى: "الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات"؟

- نعم يا أخي. وأنا كذلك لم أر منها إلا الخلق الحسن. لكن، ما العمل أمام هاته الفضيحة؟ ماذا لو انتشرت الصورة بين الناس؟ كيف سيكون وضع عائلتنا؟

- فلتهدئي، سيكون وضعنا بخير. كيف لا وقد اخترنا بنت الأصل الطيب.

استغربت من كلمات أخيها وقالت: والصورة؟

- الصورة؟؟ لما نظرت إليها بغضب إنساني رأيت فيها فتاة عارية هي عروسي التي تجلس بجانبي. رأيت فيها خديعة وعارا. رأيت فيها فضيحة لي ولأهلي. لكن، لما هدأت من روعي، وقرأت بعض آي القرآن، رأيت الصورة ببصيرتي لا بصري الذي غشته الظلمة.

- ماذا تعني يا أخي؟ ما علاقة قراءة القرآن بالصورة؟

- أعيدي النظر جيدا إلى الصور يا فرح. هي صورة مفبركة أخذ شيطانها وجه فرح، وألصقه بجسد ليس له.

ذهلت فرح لما أعادت النظر إلى الصورة. لاحظت الفبركة الواضحة التي لا تخفى لولا شرارة الغضب التي نظرت بها إليها أول مرة.

- فلتسامحني يا أخي. ولتسامحنا زرقاء الطاهرة العفيفة أن ظننا، للحظة، بها ظن السوء.

- لا عليك يا أختاه. إن شياطين الإنس تستعين بشياطين الجن كي يفرقوا بين المرء وزوجه وما يزيدونهم في رغبتهم تلك إلا رهقا. سنعود لإتمام مراسيم الزفاف حتى لا يلاحظ الناس غيابنا. حاولي أن تخلعي عنك سمت التوتر، وأن تعودي لطبيعتك، وسرورك. إننا بحاجة إلى تركيزك في التقاط صور المناسبة.

انصرف عبد الهادي أمام ذهول أخته فرح. أي فؤاد يملك أخوها بين أضلعه؟ أي رجل آخر كان سيقيم الدنيا، ويكدر العيش بعدما رأى عروسه في صورة عارية. لكنه بحلمه يرى ما لا نراه، وينظر ما لا ننظره. هنيئا لك يا زرقاء برجل من أعظم الرجال.

# عيـالات الحـومـة

بالبيجامة وبشعرها المنسدل على كتفيها الذي لم يره يوما أحد، خرجت السيدة فتيحة إلى الحومة حافية القدمين تصرخ كالتي بها خبل. كشفت البيجامة عن قوام ممشوق لطالما تخفى وراء العباءة الفضفاضة التي لم تظهر من مفاتنه شيئا. وحدها تلك الأعين الواسعة كانت تتأبى على الستر وتشي بامرأة ثلاثينية مكتملة الأنوثة تقبع خلف ذلك الستار الأسود الكالح.

استمرت السيدة فتيحة في الصراخ مستنجدة دون أن تجد لصوتها صدى بين أهل الحومة. تنظر يمنة ويسرة فلا ترى إلا القطط تموء حولها كالتي تسائلها ما خطبك؟ ترفع عينيها جهة شرف المنازل راجية أن يطل عليها أحد ممن يفترس جسدها ومشيتها مذ تخرج من بيتها حتى عودتها إليه. ما بالهم غابوا الآن وهي في حاجة إلى سفهائهم لما خبرت غياب الشهم التقي فيهم.

أين هي تلك الأعين التي تعريها من لباسها كل ساعة؟ و أين هي تلك الكلمات البذيئة التي تجرح الأسماع؟

كانت السيدة فتيحة أرملة في الثلاثينيات من عمرها. غادر زوجها إلى دار البقاء بعد أن كان في مهمة على الحدود هو وثلاثة من رفاقه. كان الراحل يزور زوجته مرة كل ثلاثة أشهر سيرا على النظام الذي كان يحكم سلك الجندية الذي انخرط فيه منذ سن الثامنة عشرة. لكن، كان لزياراته تلك على قلتها درء لأعين الذئاب الجائعة التي تطمع في جسد امرأة على ذمة رجل. لم يستطيعوا مقاومة طراوة جسد لم تره أعينهم. لكن أعين مالكته كشفت عن غوايته. صارت سهام نظراتها تصيب بالرعشة والرغبة كل من صوبت إليه؛ ببشرتها الغضة كبشرة البرنسيسات. لم تنل قساوة عيشة الحومات من نضارتها شيئا. مشيتها المتزنة كسمفونية موسيقية عذبة الألحان. صوتها الرخو كان كفيلا لوحده بأن يوقع في حباله كل متذوق للحن الموسيقي الجميل. لطالما حاولت أن تصادق نساء الحومة. لكنها كلما اقتربت من إحداهن إلا وكشرت في وجهها، وأعرضت عنها. زاد صدودهن بعد وفاة زوجها، وبقائها وحيدة في بيتها. كانت السيدة فتيحة تعلم سبب هذا الصدود رغم أنها لم تعر أزواجهن المتحرشين بها، ليلا ونهارا، اهتماما. ولا هي اشتكت من تحرشهم لزوجاتهم حتى لا يقال عنها "خرابة بيوت".

أملت السيدة فتيحة النفس بأن تجد في أهل الحومة الحضن الدافئ الذي يأويها، ويدفع عنها الأذى. عاشت هي وزوجها قيد حياته في سكينة معهم. لم ير منهما ما يؤذي أحدا من أهالي الحومة. يكفي أن الذي غادرها شهيد الواجب الوطني.

ألم يكن هذا ليجعل مواطني الحومة يتخذونها أميرة عليهم وهي زوجة الشهيد؟ نعم لقد اتخذوها أميرة. لكن، أميرة الشهوة والجمال والأنوثة. بلغ الحال بها أن كرهت الجمال الذي جبلها الله عليه. ما أقسى أن تكرهك الذئاب على الكفر بأنعم الله. ألم يعد الله عباده الشاكرين بزيادة النعم مع الشكر؟ كيف تشكر وقد صارت نعمة الله نقمة عليها وغدت في مرمى الأعزب والمتزوج؟

استغرقت في إحدى الليالي الباردة في مشاهدة التلفاز. وحده هذا الجهاز القادم من وراء البحر يؤنس وحشتها، ويكسر جدار الصمت الذي عم البيت منذ لحظة الفقد. كانت غارقة في متابعة أحد المسلسلات العربية. أحست للحظة أنها شخصية من شخصيات العمل التلفزيوني، وبطلة من بطلاته. تقفز من أريكتها إلى الأحداث دون أن تأخذ إذن المخرج في ذلك. لم تكن في حاجة إلى أخذ إذنه فقد سبرت أغوار العمل التلفزيوني منذ مدة. وجدت لنفسها مكانا في العمل سيزيد من مبيعات العمل ومن نسب المشاهدة. وحتى إن لم تتقن الدور فلها ما يشفع لها، ويضمن للعمل نجاحه. لها جمال الخلقة، وجاذبية الجسد وإثارته التي صارت جواز مرور في أي عمل. وجدت السيدة فتيحة نفسها داخل أحداث العمل الدرامي، وقد أخذت دورها دون مقدمات. دخل الممثلون معها في حوارات شتى دون أن يخلخل ظهورها سيناريوها حفظوه. انتهى إلى مسامعها صوت يشبه صوت طرقات على الباب. ما مصدر هذا الصوت وقد كان المشهد في فضاء رحب لا يوجد فيها أبواب. لربما سقط شيء من أحد عناصر فرق التصوير وأحدث

الصوت. عاد الصوت من جديد لينتشل فتيحة من عالمها التلفزيوني، ويقذف بها في بيتها في الحومة اللعينة؛ إنه صوت طرقات على باب بيتها الخشبي السميك.

ألقت بعباءتها السوداء على جسدها الذي كشفت عن مفاتنه قبل قليل وهي تدخل العمل الدرامي. غطت شعرها برداء وردي. اتجهت نحو الباب المغلق بإحكام ووضعت أذنها عليه

- شكون

- انا الطويل مول القهوة.

- شنو حب الخاطر ا سي الطويل؟

- الى جات على خاطرك ا للا فتيحة بغيت نهضر معك فواحد الموضوع. صحاب الحومة رسلوني لعندك. ونا رسول ماعلي غير نبلغ.

- شنو هو هاد الموضوع؟

- واش غنهضرو والباب مسدود هاكا. وراه الهضرة مكترماش كيف قالوا سيادنا الأولين.

بعد قلق ساورها، وإلحاح غير طبيعي من رب المقهى، فتحت السيدة فتيحة الباب. تسمر رب المقهى في مكانه، والبدر يطل عليه من وراء باب خشبي يوري اللآلئ من ور ائه. نظر إليه البدر المنكشف من سدرة الأسرار منتظرا منه الخوض فيما جاء من أجله. طال جمود الطويل وتسمره من سحر ما رأى. صحيح أن هذا البدر كان يطالعه كثيرا لكن مسافة القرب التي هو عليها الآن لم يحدث وأن كان عليها من قبل. ما أخرجه من عالم سحري

عاش فيه تلك اللحظات سوى صوت جميل تكسى ببعض الحزم، فخرج على غير مخرجه المعتاد:

- اش حب الخاطر؟ شنو بغو ناس الحومة عندي؟

بنبرة مهموسة كالذي لم يستيقظ بعد من حلم جميل:

- واش نهضرو قدام الباب؟ منشربوش كاس أتاي و أنت مولات الخير.

بنبرة غضب لم يألفها من صوت ملائكي اعتاده:

– شمن اتاي كون تحشم؟ طلقني شنو بغيتي؟

علم أن خطته باقتحام مملكتها لن تجدي مع هذا الملاك الجميل حتى في حالة هيجانه. عاد إلى ما أرسل من أجله وقد أشاح بوجهه جهة قدميه كالمتنكر مما يقول:

- ناس الحومة كيطلبو منك تخوي الحومة، ولا غيديكلاربو بك للبوليس.

- شنوووو؟؟؟ علاش شنو درت بالسلامة؟

- قالوا راك كدخلي الرجال للدار، ووسختي سمعة الحومة.

- الله الله على النقا..الله الله على الطهارة..هانت واحد منهم بارك كتبلحس دخلتك للدار؟؟؟

- أنا بلغت الرسالة..أشاح بوجهه، وغادر المملكة التي بقيت في ذهنه بكل أسرارها.

بقيت السيدة فتيحة مسمرة في مكانها وهي ترقب ذاك الطيف يغادر المكان. ما كانت تتوقع أن تكون هاته نهاية تمنعها وصون نفسها. وصل بهم

الأمر إلى رميها بالتهم الباطلة لما ألقت برغباتهم في المجاري. هل هذه هي أخلاق عيالات ورجال الحومة المغربية؟ أي مسخ ذاك الذي أصاب أهلها في مقتل؟ ألم تكن الحومة بالأمس القريب هي البيت الكبير الذي يضم داخله غرفا صغيرة؟ ألم تكن مائدة الطعام واحدة داخل البيت؛ تتزين بأنواع الطعام المختلفة التي تطبخها كل غرفة؟ ألم تكن أبواب الغرف مشرعة، فما بين الأهل غريب ليصد الباب في وجهه؟ كانت الأسئلة تتزاحم في خلد السيدة فتيحة. وحدها الأسئلة وجدت طريقها ساعتها. أما من يجيب عنها، ويخلصها من حالة الفوضى الفكرية التي تعيشها فقد خرج من خشبة المسرح متواريا، مستقيلا من مهامه التنويرية، مسلما دوره لعبثية الشرط الإنساني التي ستلعب الدور فوق الركح.

أغلقت الباب، وعادت لأريكتها التي فارقتها قبل ذلك المشهد الدرامي الذي جمعها مع رب المقهى. رب المقهى الذي جعل مقهاه ملعب القمار، ووجهة المتحششين، وعشاق الشيشة الشرقية. كانت كل بلاوي الدنيا تجتمع في ذلك المقهى دون أن يستنكر أحد من أهالي الحومة ذلك. دون أن يطالبوا صاحبها أو السلطات بإغلاق فضاء صار مهددا لصغير الحومة قبل كبيرها. حز في نفسها أن ينظر إليها على أنها الكائن الأنثوي الضعيف الذي لا حيلة له. وضعت أمام خيارين إما أن تستجيب لنزواتهم، وإما أن تجد نفسها مشردة ومقبلة مكرهة على ما تمنعت عليه بالأمس القريب.

أغلقت صفاء الملف المعنون بـ "عيالات الحومة" وشهقاتها تتعالى تأثرا بما قرأت. لم يكن ما قرأته من سيناريو غريبا عنها فهي ابنة الحومة القديمة، وقلبها يدمي لما آل إليه هذا الفضاء بين أمس مشرق وحاضر قاتم

مسود يحمل من الآثام ما يقذف بأهاليه في براثن الخطيئة. تناولت هاتفها الخلوي. اتصلت بالمخرج، وأخبرته بأنها قبلت لعب دور السيدة فتيحة في فيلمه الجديد دون شروط مادية. لقد نظرت الممثلة صفاء إلى السيدة فتيحة باعتبارها صوت كل أنثى تتأبى على النهش الذي تتعرض له نساء اليوم

من الكلاب الضالة. هي رسالتها إلى كل نساء المغرب والعالم. إنها فاتحة المسكوت عنه لما تتعرض له النساء في كل الأفضية. إنها شهرزاد التي نذرت حياتها لإنقاذ بنات جنسها من موت حتمي قضاه الرجل دون محاكمة.

## صخــرة سيزيف

كان يطالع المارة بجسده النحيف الذي خربته نوائب الدهر. لا تكاد تراه الوجوه المتجهمة. تحسبه طيف بشر. يبدو أن أحدهم سيخترقه لضآلة جسمه، وقصر قامته التي لا يراها الوخواخ الذي وقفت بطنه المترهلة حاجزا أمام رؤية أسفل قدميه.

كان "إزم" يحتسي القهوة في المقهى المقابل لبرج فاس وعيناه مشدوهتان للطفل بائع المناديل. لا شك أن الطفل قد اختار هذا السبيل درءا للوقوع في براثن الجريمة، ورحمة بصاحب البطن المترهلة الذي سيبقر بطنه تلك في يوم ما حتى لا تصير حاجزا أمام ناظريه. لم يرتشف رشفة جديدة، بل نفث دخان سيجارته وقد تسمر بصره في فنجان القهوة الذي استحال شريط ذكريات شده إلى ماض سحيق. رأى في الفنجان عناقه الأول لحبيبته الأوربية الشقراء مارغريت. رأى في الفنجان عينيها الزرقاوين اللتين تضيئان الغرفة. رأى في الفنجان تفاصيل جسدها الذي رسمته ريشة رسام.

رأى في الفنجان قارئته التي رشحته من ترسبات قريته في الأطلس المتوسط التي لفظته ذات يوم.

ماذا يفعل هذا الطفل في الها هنا الآن؟ أكلما حاولت نسيان ماض تفنن في جروحاته، يأتي السبيل بأحدهم ليعيد تأثيث سيرة كانت ذاتية لحظة متها وصارت غيرية وأنا أعيشها. هل تتكرر السمفونية ذاتها مع كل الأشخاص؟ هل لفظت "آزرو" كل أبنائها في خرقتهم البيضاء، ورسمت لهم طريقا واحدا ليسلكوه ولا يشذ منهم أحد عليه؟ كادت رأس إزم تنفجر في تزاحم الأسئلة والأفكار.

بدأت السماء ترسل عطاءاتها الأولى التي انسدلت من أهداب الطفل بائع المناديل. أقرت بدمع يغالبه وهو يهرول جيئة ورواحا دون أن يبيع علبة مناديل واحدة. امتزجت دموع السماء بدمع مسجون في العيون الشاخصة التي استحالت عسليتها اصفرارا. ما بال المارة لا يبتاعون مناديل؟ أما عادت لها وظيفة؟ ألا تصلح لتجفيف النظارات في هذا الجو الماطر؟ أليست سترا لدم اليدين اللتين ترتكبان أبشع الجرائم في حق الإنسانية؟ إنه مثلي لم يخل أن المناديل بتعدد وظائفها، واستعمالاتها المطهرة المزيفة لأحداث الجريمة قد استحالت سلعة رخيصة يدير لها المارة ظهورهم بعد أن كانت مطلبا عزيزا.

التقط "إزم" في فنجان الذكريات قسمات رفيقة الرصيف " تليلى". كانت تبيع هي الأخرى المناديل. حكت له دون مقدمات قصة التقيؤ التي صارت سيرة مشتركة بين أبناء رصيف شارع الحسن الثاني. لم تنتظر أن تسمع قصته فهي بلا معنى. أين المعنى في تقيؤ الخطيئة ذاك؟ هل ارتكبوا ذنبا

أن وقعوا في تلك الأحشاء؟ لماذا لم تلفظهم مذ الوهلة الأولى؟ آه لا بأس فدينهم يجرم ذلك " ومن قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا". أوليس من الجريمة التبرؤ من لحمة في خرقتها البيضاء؟

رأى في فنجان القهوة المدينة التي تبنته بعد أن لفظته قريته بالأطلس. المدينة التي منحته الأرض فراشا والسماء غطاء. المدينة التي علمته تطليق الخوف ومجابهة الصعاب بعد ليال أول كانت صعبة على القادم من حجرة الأطلس. كان "إزم: يعيش النهار ولا يسكن الليل في مدينة لا تنام. في مدينة يستيقظ نوام النهار ليحيوا ليلهم، ويعاقروا قنينات الماحيا التي أسالت دمه ودم إخوته في الرصيف غير ما مرة. كان أن حدث في إحدى الليالي أن أصابت زجاجة ممتلئة رأسه فأسالت دما في لونها ذاك. لما سمع من "تليلى" أن النبيذ يسمو بصاحبه عن العالم الآثن والأليم، اغترف غرفة عله يسمو عن الألم الذي أحدثته الزجاجة برأسه فكانت شربته الأولى.

باغت الرجل قصير القامة "إزم"، وقطع مسلسل أفكاره:

- " سي محمد راني غسلت المرسيديس عوينات راه ولات مرايا".

وضع "إزم" يده في جيبه، وأخرج محفظته الجلدية. سحب إحدى الأوراق النقدية، ومنحها للرجل حتى لا يفكر يوما في بقر بطنه التي أصبحت مترهلة.

## خلـــف القـــضـــبان

كان لي صديق يا صاحبي أحبه كثيرا، وأحب منه صفاء قلبه وبياض سريرته، وعفوية خاطره. وبعد ذاك، فرق الدهر بينه وبيني. هو إلى سبيل هو المجهول الذي لا ترتجى منه إفادة، و أنا الله وحده أعلم بسبيلي.

تعانقت جمالاتنا يا صاحبي منذ ما يربو عن عشر سنوات. عرفته فيها وعرفني، ثم سلك بعد ذلك مسلكا غير الذي رسمنا خطوطه سوية. تناسيته وتناساني وما عدت لذكراه وذكره لا في جد ولا في هزل. كيف يتذكرني وقد تشرب من نار بروميتيوس قبسها الذي يحرق صاحبه. وأعلى راية الشيطان ناسفا معتقداته ومعتقدات آبائه. سلك واهما درب النضال. وأي نضال ذاك الذي يقذف بصاحبه في غيابات الضلال بلا أمل أن تلتقطه زمرة من رفقاء الخمر وسفاكي الدماء. لقد باعته خلته بدراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين.

لم أعد أعلم من أمره شيئا بعد ذلك؛ لأن حياة المنكرين حياة متشابهة متماثلة تلاقت على إشهار السيوف والاعتداء على الحرمات، وتفرقت على التعاون على البر والتقوى.

لم يعد يشغل هذا التائه موضعا في قلبي. ولما انقطعت أخباره حتى اليسير التافه الذي كان يصلني منها حينا بعد حين، وما عاد يأتيني من أخباره لا البشير ولا النذير، قررت بدافع من الفضول أن أسال عنه، خصوصا أن بيت والديه الذي لم يعد يعرف طريقه إلا خطأ يقع بجوار بيتنا. سألت عن الصاحب الضليل فكان الجواب: - " ألقي عليه القبض وهو الآن في السجن". كان جواب الجار بوقع جرح الحسام المهند الذي يحول القلوب أشلاء، والجسوم أجزاء متطايرة في ساحة الوغى. لم أطل كثيرا في التفكير. على قسوة الخبر، لم يكن مصير آخر ينتظر صاحبي غير ذاك وهو أهون عليه من شفرة كانت تتربص به ليل نهار. لطالما انتظرت إحدى الفاجعتين لكن إحداهما أهون من صاحبتها. على الأقل تمنح هاته الفاجعة فرصة لصاحبها لبسط صفحات ماضيه، والاستفادة من زلاته وحماقاته.

استيقظت باكرا وقد عقدت العزم على زيارة القريب البعيد في سجنه. تم التصريح لي بالدخول وعيون موظفي السجن تكاد تلتهمني بنظراتها التي عرفت مغزاها. لا أحد طلب زيارة صاحبي غير زمرة من أهله. و أنا أول شاب أطلب لقاه. هم يظنوني رفيق درب لا محالة. مخرب سياسي أهدد أمن البلاد والعباد.

اعلم، حفظك الله، أن من يسمون أنفسهم واهمين مناضلي الجامعة لا يظهرون الوحدة والتكتل إلا ساعة الانتشاء، فإذا أنت زج بك في الزنازن ألفيت كل صاحب منكرا لا ينفع.

تقدمت نحو القضبان الحديدية التي حالت دون عناق تستلزمه حيثيات المقام. أبصرت جسدا لم يبق منه إلا الخيال، فقلت: أيها الخيال المتنكر في زي إنسي. قد كان لي في زيك ذاك صديق محبوب فهل لك أن تدلني عليه؟ لولا أنني رأيته رأي العين، لقلت إنه مجرد خيال. وأنهم غيبوك في زنازن لا يعرف طريقها أحد. ظلال الوجه الكسيح تشي بنسخ من شيخ هرم بلغ من الكبر عتيا. رأيته ورأيت فيه والده الستيني النحيل ذي الجلباب المغرب التقليدي. استغربت كيف للزمن أن يلعب لعبته هاته، وأن يسوي في لحظة بين الشاب العشريني والرجل الستيني؟ أي مكر وأي خداع وأية لعبة يلعبها الدهر بنا ونحن لا نستطيع مجاراته لما استأثر وحيدا بقواعد لعبته التي ما عرفها شركاءه في اللعب؟

لو تحدث الجسد الكهل الذي يمثل أمامي لحدثني عن جسم عليل كان بالأمس القريب يصول ويجول في ساحات الجامعة ومدرجاتها، في مقصفها ومكتبتها، في صبحها وعشيها. هاهو الجسم أمامي، نظرة واحدة إليه تغنيك عن أي سؤال عن أحوال صاحبه. فهذا الآدمي لا يتحدث عن أحواله، بل قسمات وجهه ونحافة جسده هي الحال ذاته.

لقد هجرت هذا المحيى العاجز كل بسمة حتى وصاحبه القديم الو افد عليه في سجنه يطل عليه بعد فراق سنوات عجاف. أردت أن أبعث في قلبه الأمل العظيم. قد يكبو الفرس اليوم أو غدا. لكن عزيمة الرجال تعيد إليه شموخه وتبوئه صدارة السرية. باغتته بسؤال الحنين مبتسما:

- أ تتذكريا صاح مشروعنا التجاري لما كنا طفلين؟

- وكيف أنسى بيعي لثمار الصبار وألم شوكها الذي ينغرس في يدي ولا يفارقني؟ أقضي ليلتي بين دغدغة تلك الأشواك في جلدي، و انتظار صبح باكر أقصد فيه السوق لاقتناء أشواك اليوم الجديد. فلعمري، أرأيت في حياتك طفلا يحرم نفسه لذة النوم، ولعب الأطفال، ويستيقظ باكرا للتزاحم مع باعة الأشواك؟

- كان وخز شوكها مؤلما. لكنها لحظات جميلة ما كنا فيها نفكر في شيء من هموم الحياة غير ربح دراهم تعيننا على اقتناء مستلزماتنا الدراسية.

- هي لحظات لا كسائر اللحظات. إنها لحظات البؤس الأليم. لحظات اغتصاب بكرة طفولة ما عشناها. لحظات جحيم دنيوي تحس بلهيب ناره تلفح وجهك بمجرد ما أن تطرق بو ابته.

أطبقت على شفتي وأشحت برأسي جهة قدمي. علمت أنني لم أحسن اختيار الذكرى. صار الحنين مرضا للحنين. حسبت في استذكار لحظات طفولتنا مواساة واستحضارا للحظات جميلة. لكن اللحظات أصبحت متشابهة عند صاحبي. يستوي فيها الطفولي وغيره. إن مشاهد الحياة صارت عنده صورة للألم والمعاناة والقهر والحرمان.

أصبح فؤاد صاحبي فارغا، و أبدى ما فيه، وربط على قلبه. لم يكن سهلا عليه أن يجد نفسه مرميا في زمن النسيان وهو القائد الذي كانت تنحني له الرؤوس حالما يطلق سهام كلماته الأولى في " حلقيات الجامعة". كان السجن قاسيا وكان أثره على روحه وجسمه مزلزلا. صحيح أن شخصه كان لطيفا وديعا كتوما، لكنه مع ذلك كان يختزن موردا من الاحتجاج والسخط والصراخ ما الله أعلم به.

صار لصاحبي حضور في الغياب داخل الحرم الجامعي. على الرغم من تخلي رفاقه عنه في محنته غير أن أفكاره اليسارية كانت تصدح في كل الحلقيات. غذى مناصريه أرغفة من ذاك الطبق الفقير. لم تكن تربيته لجيله مجرد أفكار لنصرة الفئات المهمشة، والتكلم بصوت من لا صوت له أمام مركز غاشم يحلب البقرة ويصدر للهامش خوارها. بل كانت مرايا للأنا الصغيرة التي عانت الحرمان وألم الشوك المنغرس في صدرها وهي تتدفق بكل عنفوان في الحاضر. كانت الطبقات في نظره تزهق أرواح بعضها وتدوس عليها دونما رحمة. كان أنين أطفال المعوزين يهيج فؤاده فيصرخ ألما وكمدا دون أن يسمع له صوت.

قطع حبل أفكاري صوت شهقته التي سمحت لعبرة مهراقة بالنزول على خده. كانت عيونه حزينة بمطالع ما مضى وما هو كائن لم ينقطع وما سيقع. حاولت مواساته، وخاطبته: - لا شيء فات يا صاحبي. لم يتبق الكثير حتى تعانق شمس الحرية من جديد. أنت شاب في مقتبل العمر، والحياة تشرع لك أحضانها. أبشر ولا تنفر فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون.

- رغم انقطاع الصلة يا صاح إلا أن كلماتك ما فارقتني يوما. فما نسيت نصحك لي بالحفاظ على نفسي من أجل أم أخذ منها الدهر كثيرا وما أعطاها شيئا. لكن قمة الظلم والأسى كانت أكبر من أن تكبح كلماتك جماحي التي تحرق ما أمامها وتصيره هباء منثورا.

- يا صاحبي. الظلم ظلمات لصاحبه يوم القيامة. لكن أن تصل بك جرأتك وعلمك الذي لا ينتفع به إلى التشكيك في من خلق، فذلك لعمري تعد لحرمات الله. ومن يتعد حرمات الله فهو آثم قلبه. أفق واجعل سجنك حافزا لك لتغيير نهجك الضليل. أولم يأن لقلبك أن يخشع لذكر الله؟

- بلى قد آن..بلى قد آن..بلى قد آن.. يجيب بحرقة الندمان الذي تغسل دموعه خطاياه.. فما بقي من العمر أكثر مما مضى.. وقد أوشك السفر على الانتهاء. و إني كادح إلى ربي كدحا فملاقيه. وليس أحب إلي من أن ألقاه راضيا غير غضبان. لكن يا لهول ما اقترفت يداي. ويا لعظم ما جارت جوانحي.

- أبشر يا صاح. إن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.. ورحمة ربك وسعت كل شيء. إنها قريب من المؤمنين.

- أتوب إليك يا الله من كل ذنوبي.. أتوب إليك يا ربي.. إني عذت، وتندمت من كل ذنوبي التي عملت.. فرحماك بعبد ناجاك.

رقت عيني لكلمات صاحبي. هربت عبرة من مقلتي من فرط فرحة صديق تاه، وعاد قبل أن يواري جثمانه الثرى. ودعت صاحبي ووعدته بزيارة قريبة أرى فيها أحواله. سأكون بجانبه حتى يعانق نور الحرية من جديد، ويستظل بنور الإيمان فيأخذ بيدي، وآخذ بيده إلى بر الأمان حتى نستظل بظل الرحمان يوم لا ظل إلا ظله.

# تلــك الرائــحة

أشرقت شمس الخميس على سعيد وقد اتسع به المكان. زنزانة الأمتار الأربعة التي احتضنته طوال العشر سنوات هاهي الآن تلفظه كالأم تلفظ جنينها في لحظة الوضع. صحيح أن ألم اللحظة لا يعدله ألم. لكن بشارة النظر إلى وجه الوليد تمسكه قوابله لا توازيها فرحة.

لقد كان هذا الفضاء المغلق/ المفتوح رحما دافئا تغذي فيه، خيوط الشمس الهاربة من شقوق الجدار المتصدع، خيال سعيد. يأخذ في التهام الكتاب الذي انسل إليه من تلك الأيادي المتسللة من قيد المراقبة. سافر مع ماكايوفسكي، وراهن شيخوف، وجالس دوستويفسكي وغيرهم من مفكري الجغرافية الشرقية. لقد كانت الكتابات القادمة من الشرق الأوربي أكثر ما يلح عليه سعيد في طلبه مذ وضع في زنزانته تلك. أ لأنها وليدة الصوت الاشتراكي الشرقي الثائر على كل أشكال التميز والطبقية؟ أم لإبداع هؤلاء الذين، لربما، فاق خيالهم التصويري نظراءهم في غرب القارة؟ ما طلب فيما

ينسل إليه كتابا من الخزانة العربية. كان تواقا لاكتشاف الآخر المغاير، شغوفا بالأدب المعاصر مادام هو المحرك الرئيس للمجتمعات، غير آبه بذلك النوع من الترف الفكري الذي يمسي صاحبه حالما، ويصبح على كابوس مقوض لأحلامه الوردية.

مرت عليه الأيام الأولى داخل هذا القفص الاسمنتي كئيبة روتينية لا يقطع روتينها سوى حلقات التعذيب التي يتفنن أصحابها في استفزاز جسده النحيف بها. سرت الهزات من خصلات مقدمة رأسه، التي استحالت بياضا داخل السواد العرمرم، إلى أخمص قدميه. تبدأ الحلقات بغمس الرؤوس في براميل الماء حتى تختنق الأنفاس. تعرج بعدها على الشحنات الكهربائية بواسطة الأسلاك التي توقظ مناطق الجسم كلها، وتخرق عذرية المسام التي اتسع منفذها مع توالي الأيام. تنتهي به إلى عنترية الحمام البارد في صقيع الزنازن. وحدها تلك الشطحات المازوشية تكسر صمت الزنازن الموحش الكئيب.

لم يكن سعيد يعلم أن ارتياده سمر ليالي الأنس بمنزل صديقه العربي المحاذي لمحطة القطار سلا تابريكت، سيستحيل سمفونية حزينة تنتهي إيقاعاتها في المعتقل السري. يتذكر جيدا تلك الليلة من سنة ١٩٧٣ وهم يتسامرون، ويعقرون الكؤوس، ويناقشون الوضع المأزوم الذي تتخبط فيه البلاد. هذا الوضع الذي لم يكن ينتظره أولئك الحالمون بجلاء المستعمر الفرنسي وانبلاج فجر الاستقلال. كانت نقاشات منزل العربي، الذي يضم طبقات مختلفة من الأصدقاء المقربين إليه، تبتعد عن المتعة واستعادة الحياة لتفتح تعبا آخر ظن سعيد وهو يرتاد منزل العربي أنه سيتخلص منه.

عرض العربي على سعيد فكرة المجيء إلى منزله من أجل السمر والخروج من وحدته التي تقتل شبابه يوما بعد يوم. قبل سعيد الفكرة بعد تفكير عميق ظنا منه أنها هروب مناسب من تعب اليوم في القاعدة الجوية بسلا. لاسيما أن الرائحة المنبعثة من القاعدة لم تكن مألوفة وأخذت تزكم الأنوف. تلك الرائحة كانت مغايرة للرائحة التي ألفها مذ التحق بسلك الضباط فيها. تذمر سعيد في الليالي الأولى من النقاش السياسي والاقتصادي لمرتادي ليالي الأنس والسمر. كان يأخذ حيزا أكبر من حيز الملح والنكت والموسيقى الذي يطمح إليه. لكنه سرعان ما ذاب في هذا الفضاء، وتأقلم مع ليالي منزل سعيد، واستطاب الخوض في مناقشة وضع بلاد خالفت التوقعات والمؤمل بعد نصر ٥٦. ما كان يزيد رونق ونضارة نقاشات ليالي الأنس هو تلك الأنغام الأصيلة المنبعثة من أوتار عود الشيخ الضرير المعطي.

في إحدى الليالي احتدم النقاش بين سي سمير الأستاذ الجامعي بكلية العلوم الاقتصادية والقانونية وولد رابحة صاحب المهن السبعة. في منزل العربي كان عاديا أن تجد هذا النوع من النقاش بين الأستاذ الجامعي والرجل العامي. كان منزلا يذيب الفوارق ليقتحم أسوار الهموم الجماعية التي تشغل كل المغاربة باختلاف انتماءاتهم الطبقية ووعيهم.

- ماشي هادشي علاش ناضلات الحركة الوطنية، ماشي هادا هو الوضع اللي توقعناه وحنا كنهربو السلاح فخناشي د التبن.

- سي سمير منكونوش سوداويين. راه خروج المستعمر هو أكبر نصر. والتغيير نصبرو عليه كيجي شوية بشوية. وبقطرة قطرة غيحمل الواد.

- الصبر ( يطلق ضحكات مستهزئة).. على ماذا نصبر ا ولد رابحة؟ الله يهديك. واش البلاد كاضيع مننا فكل نهاروتقول لي نصبرو. راه ١٨ سنة هادي باش خدينا الاستقلال ماشي البارح ولا اليوم. ولا شيء تغير، بل ولا شيء ينذر بالتغيير.

تفرس سعيد في وجه سي سمير. علت الحيرة والقلق محياه. تسربت إلى أنفه في تلك اللحظة رائحة ليست غريبة عنه. إنها الرائحة التي صارت تملأ أرجاء القاعدة الجوية في الأيام الأخيرة. كان يعلم جيدا أن انخراطه في سلك الضباط يحظر عليه التواجد في هذا المكان وهذا الزمن المأزوم. لكن غواية المطالعة التي تسللت إلى خلده دون مقدمات جعلته يجد تفسيرا لما استغلق عليه في قراءة نصوصه داخل منزل العربي. إنها بداية التعرف على عيون الأدب الروسي المحظور آنذاك، والإبحار مع أعلامه. صار هذا الأدب مع توالي الأيام والليالي عشقه الأول الذي يبحر به في عوالم الوجود الفسيح بعد أن ضاقت به الأرض بما رحبت، وظن أن لا ملجأ من الحزن إلا إليه.

أصبح سعيد ينظر إلى من يحدثه في العمل نظرة شك. بدأت هاته النظرة منذ الليلة التي طرق فيها "المقدم" بابه متسائلا عن سبب تأخره اليومي؛ غير مكترث لسلمية السلطة التي تجعل من "مقدم" لا يساوي شيئا أمام ضابط في القاعدة الجوية. حلت المفاجأة في أحد ليالي سلا الباردة. تم استدعاؤه إلى المفتشية العامة تستفسره عن برنامجه اليومي بعد الفراغ من مهامه داخل القاعدة.

استلقى سعيد على سريره ولم يذهب في تلك الليلة إلى منزل العربي. نظر إلى السقف وبدأ يفكر في طريقة تعيد إليه صورة الشاب المنضبط في عمله لدى المسؤولين. لم يكن استفسار السلطة له بمختلف مستوياتها ليمر عليه دون أن يفكر في وضع تتوزعه واجبات العمل والقسم من جهة، ومنزل العربي وكتب الأدب الروسي من جهة ثانية. قطع تفكيره طرق الباب. هم بفتحه فوجد رجالا بزي لم يخف عليه. خاطبه أحدهم

- "ليوطنون سعيد".. آسف جدا..نحن مضطرون لاعتقالك.

تغيرت ملامح سعيد. آخر شيء خطر على باله هو الاعتقال. لم يكن يعلم أن ارتياد منزل العربي وقراءة الأدب الروسي ستقوده إلى الاعتقال. ترسم خطو اته جهتهما حتى يتغلب على الوحدة التي كانت تقتله في كل دقيقة. هاهي ذي تلك الخطوات ذاتها تقوده إلى الاعتقال.

قطع الضابط الماثل أمامه بزيه المخابر اتي مسلسل تفكيره وقال:

- تم القبض على العربي وأصحابه وقد كانوا يدبرون لأمر مشين. وقد ورد ذكر اسمك أثناء التحقيق مع بعضهم.

تسمر سعيد في مكانه، وتجمدت أطر افه كمن ألقي عليه بماء بارد. تمنى لو بلعته الأرض كمن تبلعه الدوامة في الصحاري المقفرة. كادت رأسه تنفجر؛ فهو لا يستطيع التفكير. احتاج وقتا كي يعيد ترتيب أفكاره المشوشة. لكن الفكرة التي بدت ظاهرة ولا غبار عليها هي التي أكدتها تلك الأصفاد التي كبلت يديه، وقادته إلى مبنى الجهاز المخابر اتي. هناك انقطعت الأفكار،

و انصرم الزمن، وما استفاق إلا وهو يرحل معصب العينين إلى المجهول ليجد نفسه في زنزانته.

خطا سعيد خطواته الأولى خارج الزنزانة بعد عشر سنوات من الاعتقال. كانت خطواته متثاقلة. يكاد لا يضبط لها إيقاعا ولا لجسمه توازنا. كانت خطواته كالطفل الذي ثار على الحبو، وتحسس موضع قدميه ليتقن المشي. يسقط تارة ويفلح في خطوة أو خطوتين تارة أخرى. كذلك الحال مع جهازه الصوتي الذي اختلت إيقاعاته، وتداخلت مخارج الحروف فيه والصفات.

لم يجد أحدا في استقباله أو انتظاره. الكل تنكر له بعد السجن. لا أحد زاره ولا مسؤول وقف إلى جانبه في محنته. ما أكثر صحبه قبل السجن، ولكنهم أثناءه وبعده منعدمون. تفكر في مستقبله من أين يبدأه وهو خريج سجون. قصد المقهى الشعبي بحومته يشرب شايا منعنعا على أنغام الطرب المغربي الأصيل. كان للمكان إلهام روحي لفؤاده. نظر في ساعته وقصد عمله الذي رآه في كأس الشاي المنعنع المعطر بالأغاني المعتقة.

# إكـليل الجبــل

عاشت للا الغالية سنيها الستين بقريتها الجبلية باتركوت ضواحي مدينة الحسيمة. لم أستغرب لحياة الرضا التي كانت بادية على محياها للناظر أول مرة. كان العيش في هذه الجغرافيا يعدل عندها الدنيا وما طلعت عليه الشمس. لكن، ما لم يخف على العين المتأملة الفاحصة في تلك التجاعيد التي رسمتها نوائب الدهر على وجهها أن حزنا عميقا يعتصر تلك الضلوع التي تحوي جسمها النحيف. كانت الفاقة تعوزها. لكنها، لم تستطع سرقة رغيف الخبز خوفا من مصير جان فالجان. فآثرت الموت الهادئ على متابعة رجال "جافير" لها في السفح والجبل.

حدثني فيكتور هيجو عن مصير البشرية المأزوم، والمعتصر في رغيف خبز يسد جوعها، أو جرعة ماء تروي ظمأها. كان يعتقد وهو ينسج قصص بؤسائه أن حالاته هي الأخيرة المنذرة بغد مشرق. ظن واهما أن فتوحاته الأدبية هي "كطارسيس" البشرية الذي ينأى بها عن مصير أشقيائه.

أحس بحزن شديد لأنني - و أنا أنظر إلى للا الغالية تموت أمامي ببطء، و أبناؤها التسعة محيطون بها يترقبون بارقة أمل تنزل من السماء- نصحتها بالتخلي عن تعنتها، وزيارة المستشفى في مدينة امزورن أو الناظور أو الحسيمة. أيا كانت وجهة المستشفى الذي يبرئ الوجع لزمها عيادته. إن التحصن بالجبل، والاستشفاء بإكليله، لن يزيد حالتها إلا سوءا. منذ متى كانت نبتات الجبال بلسم الجراح. أم متى كانت الجبال تطفئ لهيب نار مشتعل في ذوات أهاليها.

ذات صباح وبعد عودتها من الحقل، بدأت درجة حرارتها ترتفع بشكل مخيف. تحسس ابنها الأوسط، ذو الخمسة عشر ربيعا، جبينها، فوجده كجذوة نار هاربة من حممها. سألها بنبرة المقطوع الحيلة: - ما بك ا يما؟ أشارت إلى صدرها وقد خانتها الكلمات للتعبير بلسان أمازيغي فصيح عما يجترح هذا الصدر. هرع إلى جارهم صاحب سيارة مرسيدس من نوع ٢٠٧ الحجم الكبير يسأله أن يقل والدته الغالية للمشفى. لم يتردد الجار بأخلاق الجبال في اختراق الفجاج بسيارته التي استعصت على وعورة الطريق وصولا إلى السفح المنقذ.

توقفت السيارة في موقف السيارات بالمستشفى. لما لم يتقدم أحد جهة السيارة المترهلة التي علقت بها الأوحال، لم يجد الابن بدا من الرضا بالمحظور. استندت الأم على كتف الغريب كي يوصلها إلى قاعة المشفى. لم يكن ذلك سهل التقبل، في مجتمع ريفي يحظر فيه ظهور المرأة لأعين الغرباء. المرأة الريفية عورة كما صوتها وثوبها ونظرة عينيها وبشرتها الغضة البيضاء. لكن ما العمل أمام تيه أب في مزالق السكر التي لا يفارقها طيلة يومه؟

أم ما العمل في مستشفى لا يأبه العاملون به للقادم من اغتراب الجبل بسيارة نقل تتساوى فيها الدواب والناس في السوق الأسبوعي.

بعد الكشف عليها، توجهت الطبيبة نحو الجار مخاطبة:

- أ أنت زوجها؟

- لا ا دكتورة أنا جارهم وهادا ولدها.

- أين والدك يا بني؟

- نظر إلى السقف وأجابها كالهارب من سؤال يطرحه كل يوم على نفسه: في العمل.

- على أية حال، يؤسفني أن أخبركما أن للا الغالية مصابة بداء سرطان الثدي، وهو في مرحلة متقدمة. لا أعرف سبب تأخرها في الكشف رغم أن أعراضه لا تخفى على المصاب. لكن، يجب أن تؤمنا بأن الأمل لازال قائما لذلك سأكتب لها وصفة دواء. خذاه من الصيدلية، ولتعد إلي بعد ١٥ يوما كي أرى أثر الدواء على الورم.

كانت الطبيبة تتكلم والابن متسمر في ذهول من هول ما سمع. سرطان..ثدي..ما أفدح الفاجعة ! أي صدر يستطيع تحمل وزر هذا الخبر؟ أولم يسع صدرها هذا الداء الفتاك؟ لماذا لم تبح لنا بآلامها وقد بلغ الورم مراحل متقدمة؟ لماذا احتفظت دائما بتلك البسمة الريفية التي طمست بها معالم ورم تمكن من قلبها قبل جسدها؟ تداعت الأسئلة في رأسه التي كادت تنفجر من هول الخبر. لم يخرج من بنات تفكيره إلا بيد تربت على كتفه؟

أشاح بوجهه جهة الجار الذي خاطبه: - يلاه اولدي ناخدو الدوا، ونرجعو بحالنا لتركوت.

لما خرجت للا الغالية من قاعة الكشف، رقت أحشاؤها لذلك الوجه الشاحب الذي ألفته يفيض دما وحياة. تقدمت نحوه، وقد علمت بمرضها من الطبيبة التي طمأنتها ككل الأطباء، مستنكرة تجهمه وشحوبه. خاطبته:

- اولدي راني لاباس.. قيس جبهتي تشوف راه نزلات الحرارة.. وهاداك المرض الخبيث راه خاصني نطبخ له النبتة ونولي لا باس.

انفجر الابن بالبكاء. ارتمى في صدرها كالطفل الصغير يغسل بدموعه آثار الورم القبيح الذي هاجم حياة والدته دون مقدمات. لا غدر عنده ساوى ذاك الهجوم الشنيع المفلت من عقال التلميح والتحذير. لكن للا الغالية أبت الخوض مع ابنها في بكائه وتمنعت. كانت قد قطعت على نفسها عهدا أن تكون أم هؤلاء الفتية و أباهم. استقوت على غياب الأب الحاضر في التعاطي الغائب في تقاسم أعباء الحياة معها. لم يكن جيدا إلا في أمر واحد هو تكثير الولد الذين بلغ عددهم تسعة أبناء.

قبل أن يركبوا سيارته المركونة في موقف سيارات المستشفى، استأذن الجار محمد للا الغالية و ابنها خمس دقائق. عاد بعدها بكيس صيدلي في يده. قدمه للا الغالية التي احتجت عليه:

- لواه ا سي محمد حرام عليك هادشي.. بركة عدبناك معنا الله يكتر خيرك.

- متقوليش هاد الهضرة اللا الغالية.. راحنا جيران وبحال العائلة.

- مافيها شك..الله يكتر خيرك.. ولكن راه مكنقد على دوايات راه للا راضية كان فيها المرض الخبيث وخدات النبتة وراها لا باس.

- يلاه طلعي نمشيو ا للا الغالية.. خذي هاد الدوا والله ينزل الشفا من عندو..

- امين يا ربي.. والله يكترخيرك، ويوريك فوليداتك ما كتمنى.

ركب الثلاثة السيارة. غادروا ميممين جهة الجبل مرة أخرى. ولئن كان الهبوط من الجبل مؤلما وللا الغالية تهذي فيه بعد ارتفاع درجة حرارتها، فإن صعوده كان أشد قسوة و إيلاما. عم الصمت فضاء السيارة، وانهمك كل واحد من الثلاثة الذين خلفوا في تفكير عميق. كانت الطريق طويلة. كان صعود الجبل مهمة شاقة على السيارة المتقادمة بمحركها الذي يصدر دخانا كربونيا من خلفها. وصلت السيارة أخيرا إلى قرية تركوت المطلة على بحر الحسيمة. توقفت أمام البيت، ونزلت منها للا الغالية و ابنها ممتنين للجار محمد حسن صنيعه ومساعدته. ما هي إلا لحظات حتى خرجت زوجة سي محمد من البيت وفي يدها ولدا للا الغالية الصغيرين. انفلتا من يدها، وركضا جهة والدتهما. ارتميا في حضنها غارقين في بكائهما الذي انخرطا فيه منذ غادرتهما الأم في حالتها تلك. خاطبتها زوجة سي محمد:

- ياك لاباس اللا هنية؟ كيف بقيتي من ديك السخانة.. شوية بعدا دبا

- لهلا يوريك باس اللا فاطمة.. وسمحي لنا فشقاك انت وسي محمد.

- متقوليش هاكدا.. مدرنا والو.. الوليدات بقو في..عييت نسكتهم ووالو مبغوش يسكتو..الله يخلليك لهم.

- امين.. ويخللي لك وليداتك ومولى دارك.. اوا خلليت لكم الراحة هاد الساعة.

دلفت للا الغالية منزلها وستة من الأبناء الآخرين موقوفون عند غمهم. كان أكبرهم يبلغ ٢٩ سنة، إلا أنهم بدوا لها ساعتها كتسعة أطفال رضع ينتظرون أمهم كي تغذي بعضهم، وتغير حفاظات بعضهم الآخر. لم تتمالك نفسها هاته المرة. اندفعت نحوهم تقبلهم كمن غابت عنهم سنوات طوال والدموع المنهمرة ترسم خطوطها السوداء على خديها.

بعد خمسة عشر يوما على اليوم الأسود، كانت الحياة قد عادت إلى طبيعتها في البيت والحقل. خرجت للا الغالية قبيل شروق الشمس إلى الحقل رفقة بعض أبنائها الذين لم يستو عودهم ويقو بعد على مجابهة قسوة المدينة. عملوا بجد ونشاط دون أن تعير الأم الغريب المقتحم لجزء حميم من أنوثتها بالا. أنهوا عملهم قبل العاشرة. عادوا إلى منزلهم وهم يرددون بعض الأغاني الريفية التي حفظتها للا الغالية عن والدتها.

انتقلت للا الغالية من حالة الهلع الداخلي الذي حاولت إخفاءه إلى حالة الانتشاء والسرور مؤمنة أن دورها في مجابهة العدو الغاشم قد بدأ ولابد لها من مبارزته، وإطاحته صريعا أو مغشيا عليه. لم تحب الدواء الموصوف من الطبيبة؛ لذلك فقد اكتفت بإشهار سيف إكليل الجبل مطبوخا على قدر قصديري ومصفى بغربال تستعمله في غربلة الدقيق. كسبت للا الغالية الجولة الأولى من المبارزة، وذاك ما أكدته الطبيبة المتابعة لحالتها بعد زيارتها لها:

- كي كنا وكي وللينا ا للا الغالية.. الحمد لله الحالة مستقرة.. والورم متوقف عن الانتشار.. فقط تبعي الدوا اللي عطيتك.

- الله يبشرك بالخير ا دكتورة.. اه ضروري نتبعو وخا كيجيبلي القرحة فالمعدة.

- للا الغالية اللي بغا العسل يصبر لقريص النحل..

- مرحبا ا دكتورة.

همت للا الغالية بالمغادرة وابتسامة الامتنان لبشرى الطبيبة لا لدوائها الذي اعتقدته شافيا. توردت وجنتاها، واعتزمت الاستمرار في علاجها الإكليلي الذي قدمته لها الطبيعة دون تدخل يد إنسان. عادت إلى الجبل الذي تتنفس هواءه فرحة مسرورة بما عادت به من أخبار تجعلها في غنى عن تلك الزيارات الشاقة للمشفى وقد اتضح لها سبب شفائها. لو لم يكن له مفعول بلسم الجروح لأخبرتها الطبيبة بذلك. أما وقد بشرتها بالخبر السار فلم يعد هنالك داع لتحمل وعثاء الطريق.

لم تعمر الغبطة والسرور طويلا في بيت للا الغالية. هاجم المرض في جولته الثانية الجسد المنهك وتمكن منه ورد له دين الجولة الأولى. كانت سياسة قبيحة منه في الجولة الأولى من المعركة بأن أوهمها أن لها قدرة النصر. هاهو الآن يكشف عن خبثه المتواري، ويهز سيفه غير آبه لتوسلات مبارزته، ولا تضرعات من تقاتل للا الغالية من أجلهم. لم تكن المبارزة تقبل القسمة على اثنين. لا بد من منتصر ومنهزم. أعلنت الجولة الثانية الزائر الخبيث منتصرا. فهل هي جولة التعادل أم أنه ألقى بمبارزته صريعة بضربة قاضية لا قومة لها بعدها أبدا.

لم تنتظر أهالي القرية وصول الإسعاف الذي سيستغرق ساعات. حثوا سي محمد مهدي هاته المواقف أن يقلها بسيارته. لم يتردد في ذلك. ألف الرجل نقل مرضى القرية إلى مستشفيات المدن المجاورة. كان يعود تارة فرحا منتشيا بتحسن حالة رفيقه أو تعافيه، وتارة منكس الرأس يهيم على وجهه منذرا بفقد تتعالى معه أصوات الأرامل والثكالى. أخذ للا الغالية التي فقدت الوعي وسط صراخ الأبناء. أخذها وهي تشهر إكليل الجبل في يدها. كانت تعتزم غليه في قدره حتى يصير ذا مفعول أكبر في مبارزتها. لكن العدو باغتها في لحظة سل سيفه وطعنها طعنة غادرة؛ فسقطت مغشيا عليها وأصابع يدها اليمنى ضاغطة على الإكليل كمن يطمح لجولة أخرى. ما هي إلا برهة على انطلاق السيارة حتى انتبه الابن الجالس بجانب أمه لانسلال الإكليل من بين أصابعها. تمسكت بحربتها حتى وهي مغشي عليها، لكن المنون أنشبت أظفارها فألفت للا مغنية كل إكليل لا ينفع. سلمت الروح لبارئها. طوى الجار محمد الطريق عائدا من أقصر رحلة يقضيها مع أهالي القرية في معاناتهم المستمرة إكراما لامرأة من تشريحات لا تحفظ من عرض المرأة شيئا. لو علم المشرحون قيمة الفقيدة ليمموا الوجوه جهتها كي يأخذوا من معينها دروسا في الصبر ونكران الذات والأناة، ويصلوا على قبلتها التي ركعت لها وهي تمسك إكليل الجبل.

# أعقــل المجــانــين

ظل منذ وطئت قدماه مدينتي الصغيرة علما من أعلامها المميزة. ملابسه الرثة وأسداله الممزقة تخفي وراءها أديبا يعرف من شؤون الشعر وعموده ومطبوعه ومصنوعه ما افتقده أهل زمانه. هو في المكان والزمان الخاطئين. لكن ما الذي قذف به بين هاته الكتل الاسمنتية التي تحنط ماء شعره ولا ينظر إليه أهلها إلا مخبولا فقيرا يرمون إليه ما صدئ من دراهمهم التي فقدت بريقها. يبقون البراق منها في جيوبهم. لم يكن المارون ليجودوا عليه بدرهم براق فهو لا يليق بمنظره الرث، وكلماته المستغلقة على الأفهام.

سي عبد الكريم الرجل الأربعيني كانت سيرته تجري على الألسن مجرى الدم. كانت عند أهل المدينة الصغيرة " أرفود" أهم من سير سيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمة. هذا الرجل عاش مع أهالي المدينة الصغيرة في هدوء وسكينة بعدما هرب من قريته التي رمته بالجنون والخبل منذ انقطع عن دراسته الجامعية بعد أحداث ١٩٩٢.

ذات صباح التقيت سي عبد الكريم في السوق الأسبوعي. تقدم نحوي كعادته يسألني درهما لا غير بعدما ألف الدرهم عملة واحدة يتعامل بها الناس في هاته البلدة. تفرست في محياه كأني أراه للمرة الأولى رغم أنني ألفت هذا الوجه منذ فتحت عيني على الدروب المظلمة في المدينة. كانت التجاعيد قد نصبت ندوبها الأولى، والعينان جاحظتان لا تفصلهما مسافة عن الهالة السوداء التي غزت محيطهما. في رأسه كتائب سود قليلة تعارك أخرى بيضا اشتعلت نارها، وتسيدت مكانا، ما كان ليكون في قبضتها في هاته السن المبكرة.

تأملات في هيئة الرجل لم تقطعها إلا نبرته التي ألفتها في جميع الأمكنة " واعطينا درهم الله يرحم الوالدين" والتي يبتلع فيها بعض الحروف كمن يبتلع مرارة السؤال التي جعلت مثقفا يتقاذفه الناس بسهام نظراتهم التي تمزق شرايينه واحدا واحدا. أخرجت الدرهم من جيبي حتى لا أعطيه قطعة أخرى فيظنها عملة أجنبية. وضعتها في يديه وطلبت منه أن يشعر بعض أبيات المتنبي فأنشد:

أعيذها نظرات منك صادقَة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظرِهِ ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ...وأسمعت كلماتي من بِه صمم

أحسست ببطل مغوار يسقط في ساحة الوغى فيذكر القوم بفتوحاته وبطولاته التي أنطقت الشجر والحجر. أحسست سي عبد الكريم يرثي نفسه رثاء مالك وقد أحس نهايته. استرسل في شعره وقد شرد ذهني أمام سحر إلقائه وقوة حافظته. اختبرتها وحلقت به إلى جرير، والفرزدق، وديك الجن،

وأبي تمام، والبحتري، وشوقي، والبارودي. لم يلق سيفه، ولا هو أشهر استسلامه أمام هذا الاختبار الذي يقيس ملكته الوحيدة التي لم ينضب ماؤها في هاته الحياة. إن انهزام ذاكرته يعني موته الذي يخشى أنيابه لئلا تنقض مخالب الحياة على أبنائه وتنهش لحمهم. صارت ذاكرته مورد رزقه الوحيد منذ الطرد

التعسفي الذي تعرض له كما يحكي في نازلة تصفية " آيت الجيد". لم تكن له فيها يد على حد قوله. كانت لحيته الكثيفة في الجامعة علامة سيميائية تخندقه في فصيل طلابي. نأى بنفسه عن تلك الانتماءات، ونذر حياته الجامعية للتحصيل العلمي، ونيل الدرجة العلمية التي تفتح له أحلام الوظيفة العمومية التي من أجلها غادر قريته، وقاسى غربة المدينة وصقيعها.

تساءل كثيرا سي عبد الكريم في حلمه ويقظته: متى كانت اللحية شبهة ومتى كان حلقها براءة لصاحبها؟ أليس كل إنسان بريء حتى تثبت إدانته؟ أليس من الهراء أن تكون اللحية إدانة لصاحبها؟ لازمت هاته الأسئلة خلد سي عبد الكريم منذ أحداث ٩٢ وموت آيت الجيد، وما استتبع ذلك من فصل طلبة من الجامعة. استمع لبعضهم في التحقيق، واكتفي بالفصل دون الاستماع للبعض الأخر.

بعد طرده من الجامعة عاد إلى بيته بالقرية الصغيرة يجر أذيال الخيبة والحسرة. كثرت الأقاويل التي تجرح مسامعه بين أهالي القرية. لطالما دعاه " هويليل" ابن قريته وزميله في كلية الآداب بظهر المهراز إلى إيقاف هذه الشائعات، وتوضيح ما وقع لأهالي القرية وتبرئة نفسه من تهم تتثاقل يوما

بعد يوم. لكنه كان يجيبه دائما: - لا عليك يا صاح فهم أهلي وسيأتي عليهم يوم يدركون فيها براءتي من دم أي رجل. كيف و أنا أخاف ذبح شاة العيد أن أشارك في ذبح رجل. ومهما حصل فهذه بلادي وهؤلاء أهلي وعشيرتي وردد:

بلادي وإن جارت علي عزيزة  وأهلي وإن ظنوا علي كرام

لم يكن "هويليل" يجد من سبيل ليقنع به سي عبد الكريم بعد هذا القول الرقيق الذي يصور به تعلقه بأهله وبلدته. لكنه كان يشفق لحاله ووزنه الذي فقد منه الكثير. بدت مسحة الحزن تعلو محياه محيلة نضارته صفرة رهيبة كالمومياء المحنطة في تابوتها. حاول أن يستعطف أهل القرية لأن يرفقوا بابنهم سي عبد الكريم، لكنه كان يجد منهم صدودا. ذات يوم طلب من شيخ القبيلة لما له من وقار ومكانة في النفوس، أن يثني الناس عن تجريحهم، وتهمهم لابنهم فأجابه الشيخ:

- سي عبد الكريم كان فعينينا ونهار حفظ القرآن كرمناه، وسرجنا الخيل، ودرنا به بين القبايل. لكن منين حافظ القرآن يقتل مبقا فيها لا ولدنا ولا بنتنا..

- ا سيد الشيخ شمن قتل كون قتل كون راه فالحبس.. واش الله عز وجل ظهر براءتو وبنادم كيدينو؟

- المخزن ا "هويليل" ما معه لعب. مديرش ماتخافش.. كون ماعندو علاقة كاع متلقاه مرمي حدا والديه بحال الولية جالس بلا شغل.

- ا سيد الشيخ.. ارحموا عزيز قوم ذل.. انت مول العقل وكلمتك فوق الريوس.. هالعار الى مترفقو بحال السيد.. راه مبقاله والو ويضرب بالحجر.

- إلى ضرب بالحجر راه برشيد كين. سطات يسطي وبرشيد يداوي.. يدخل له يغسل ذنوبو فيه مادام مدخلش للحبس.

خاب ظن " هويليل" في ردود الشيخ الذي نسي فضل سي عبد الكريم عليه وعلى عموم أهل القرية. تحسر وهو يتذكر تخصيص سي عبد الكريم عطلة الصيف السنوية لتعليم أبناء القبيلة. لم يكن من هواة السفر إلى المدن الجبلية أو البحرية عكس العديد من أبناء قريته. ألف منذ الصغر قضاء عطلته في هجير قريته الصحراوية التي يهرب منها أهلها إلى جبال الأطلس في فصل الصيف. كان ينذر عطله لتحفيظ الصغار أحزابا من القرآن، وتعليمهم قواعد التجويد والترتيل، وتمكينهم من بعض المتون اللغوية. لم يذخر جهدا في تعليم الناشئة دون أن يطلب مقابلا لذلك. كان مؤمنا بأن ذلك من صميم واجباته تجاه بلدته وأهلها؛ بل ومن صميم رسالته في الأرض.

انقطعت الحيل بـ"هويليل" الذي أصبح يرى رأي العين خبلا يذهب بلب عقل موسوعي تفوق على أقرانه في الجامعة. أحس بقرب الكارثة التي ستهوي بسي عبد الكريم في مكان سحيق. وقف مذهولا يريد فعل كل شيء، لكنه لا يستطيع فعل أي شيء. استبشر ببارقة تلمع في سماء المدينة، وها هي ذي تغفو قبل أن تمطر غيثا فيه يفرح الناس وفيه يمرحون. تحسر، تذمر، تفكر، تدبر، فعل كل شيء في لحظة رأى فيها حلمه يتبخر. كان سي عبد الكريم حلمه الجميل الذي ارتقى به في سلم الصعود درجات وهاهو ذا يرى حلمه ينفلت منه وهو مقعد عاجز عن الحركة.

غاب سي عبد الكريم عن القرية وغابت معه كل الأحلام والانتظارات. غاب المعلم الذي أحب أطفال قريته، وزودهم بشيء من علمه الغزير. غاب من أحب أهالي القرية حد الجنون فقابلوا حبه برميه خارج الأسوار يتيه في الأرض. غاب سر من أسرار القرية، وكلمة من كلماتها التي كانت مفتتح رو اية عظيمة بترت شخصيتها البطلة فتطايرت أشلاء.. غابت نغمة من سمفونية رائقة سرعان ما انصرمت الأوتار بفقدها. ساد الهدوء القرية كأنها أزاحت عن صدرها حجرا يجثو على صدرها ويحبس معه الأنفاس. ما أقسى أن تكون مفخرة أهلك وتستيقظ فجأة من كابوس يجعلك منبوذا وكائنا غير مرحب به ! ما أقسى أن يشكل حضورك في الأماكن مدعاة للهمز واللمز من صغير القوم قبل كبيرهم! ما أقسى أن تغادر قسرا تربة تتنفسها!

لم يبتعد سي عبد الكريم عن القرية الأم كثيرا. استقر بمدينة أرفود التي تبعد عنها بحوالي ٢٢ كيلومترا. لم تطاوعه قدماه للابتعاد أكثر عن موطن البأس والبؤس. ربما كانت سلواه في هاته الجغر افيا الجديدة. استقبله أهلها وزوجوه بنتا من بناتهم كأنهم يقدمون له العزاء حول حلم مجهض. تغذى على ذاكرته التي حفظت كتاب الله وشعر العرب. لكنه، ورغم مرور أكثر من عشرين سنة، لم يستسغ بعد الطريقة المهينة والظالمة التي غادر بها الجامعة. لم يستسغ النظر إلى كرسي مندوب وزارة الثقافة الذي كان طالبا كسولا معه في الفصل. لم يستسغ النظر إلى سيارة المرسيدس الحمراء لرجل الأعمال الذي كان ثقيل الفهم والإدراك. كانت صرخات سي عبد الكريم بين الفينة والأخرى ملاذه الوحيد لدفع تلك السهام التي تصيبه كل يوم. كانت صرخاته التي تروع أهل الحي تقيؤا لألم ووجع ينخر جسده.

استيقظ الساكنة يوما على سيارات الإسعاف التي أخذت لها موقفا أمام بيت سي عبد الكريم. هرول الجيران ناحية البيت. مهما يكن من خبل الرجل، فهو واحد منهم، وقد أصبح صراخه جزءا من كينونة حيهم. تقدم أحدهم جهة سيارة الإسعاف مستفسرا أحد رجالها عما حاق بيت جارهم المخبول.

- ياك لاباس؟ شنو واقع؟ ياك ما وقعات شي حاجة لسي عبد الكريم ولا وليداتو؟

رد واحد من رجال الإسعاف:

- سي عبد الكريم اتصلوا بنا عائلتو.. مشاله الصوت مسكين.

- مشاله الصوت.. الله يا ربي..

خرج رجال الإسعاف بسي عبد الكريم مغشيا عليه فوق سرير محمول. دخل الجيران بيته وقلوبهم مكلومة على الرجل الطيب المخبول. علامات الأسى والحزن بادية على وجوه الزوجة والأبناء. دموع الأسى الحارقة على معيل البيت ومؤنسه. سأل الجار أحمد الابن البكر لسي عبد الكريم عما جرى فأجابه:

- فقنا فنص الليل على الصراخ القوي ديال الوالد.. مشينا لعندو لقيناه كيشوف فالسما؟

- اوا ومن بعد؟

- صافي من بعد بدينا كنهضرو معه كيحرك فمو مكيتكلمش وحنا نتصلو بالإسعاف.

كانت صرخته الأخيرة وهو يناجي السماء. كانت صرخة ألم السنين التي خرجت من أخمص قدميه كالسيل الجارف الذي يحيل ما أمامه هباء منثورا. كانت الصرخة الإعصار التي مزقت الحبال الصوتية لسي عبد الكريم. أي ألم كان يعتصر صدر هذا الرجل. غاب سائل الدرهم الوحيد من جديد، وغاب معه صوته الجهوري. غاب كغيبته الأولى عن قريته الأم. غاب صوت الألم الذي يوقظ الأهالي من مضجعها. غاب المستقبل الجميل الذي خرج في صرخة الألم الأخيرة.

# جـــائزة المـــوت

حين أنزلوا النعش من على أكتافهم، كانوا قد أنزلوا سي عبد الرزاق، مثقف الدوار ومفخرته التي يتباهى بها كل منتم لهذه الجغرافيا المنسية. لقد كان لسان الدوار الذي ينطق بحاله. بل إن شهرة الدوار تجاوزت حدود المحلي لتبرق نجما في سماء الشارقة. لكن لا أحد كان يدري أن فرحة التتويج بالجائزة الأولى لن تتم. فما هي إلا ثلاثة أشهر حتى شيع الرجل إلى مثواه الأخير تاركا وراءه أمه الثكلى، وزوجته الشابة، و ابنه ذو الثلاث سنوات.

شعرت في المقبرة بقلوب المشيعين تعتصر ألما وكمدا. فارقهم الشاب الذي أقفل عقده الثالث، وخلف وراءه ركاما من الأسئلة حول حقيقة هاته الحياة. سرحت في التأمل في حتمية القدر، وقوة المنية التي لا تنفع معها التمائم.

تراجع المشيعون إلى الوراء ليفسحوا المجال لحفار القبور كي يضعوا الفقيد في مثواه الأخير. هناك حيث لا أنيس ولا حبيب، يفترش التراب، وتقتات الأرضة من لحمه. تجمهر الحشد الغفير من الرجال حول الحفرة. ما أرجعهم إلى الوراء سوى صوت القرآن ينبعث من خلفهم " يس والقرآن الحكيم". تراجعوا وجعلوا التجمهر حول الفقهاء الثلاثة، ففسحوا المجال لحفار القبور كي يتموا عملهم.

كان سي عبد الرزاق موضوعا داخل نعش خشبي مغطى بملاءته التي كانت وجاءه في صقيع الشتاء. من ينام في ذلك الصندوق الخشبي؟ أيعقل أن يكون سي عبد الرزاق؟ وماذا عن حلم السفر إلى اليابان لإتمام دراسته العليا؟ أم ماذا عن مشروع أطروحته التي فتح باب السرد القديم فيها؟ أسئلة تترى تلك التي تطرح وما من مجيب عنها سوى ذاك الجسد القابع في ذلك الصندوق المستطيل.

لم يترك سي عبد الرزاق أموالا ولا عقارات يتنازع الورثة حولها. ترك عقلا متوقدا وحسا نقديا متفردا كان ينبئ بميلاد علامة بارزة في سماء النقد العربي. ترك سي عبد الرزاق كلمات نظمها في قالب شعري، هي كل وصيته، قال فيها:

حبيبتي
أطفئي القنديل المثبت بحجارة الفرن
برتاج الباب
فإني أراك متوجهة في العتمة
لا تزوري قبري يكفي أن تختلسي نظرة

وراء حائط المقبرة الهرم لتقابلي عيناي

عينيك

إن أكلني الحوت فلا تلعني البحر

أراك من جوف الحوت

إن رحلت ابتسمي فأنا طه وطه ليس أنا

كانت غزالة زوجة الفقيد تقرأ هذه الوصية التي تركها زوجها، وتبكي الدمع ألما وكمدا. تتذكر يوم كتب لها هاته الأبيات من الشعر فعاتبته مازحة:

- أهذا ما جاد به شيطانك الشعري؟ شعر في الرثاء يا حبيب القلب والروح.

انتظرت تفتق عبقرية جنية غزلك عساها تنظم في ما غاب عن جميل وعمرو وقيس، تعيد قراءة الأبيات علها تجد فيها ما يشي بمكر الناقد الراكب لبحر الشعر. علها تجد خديعة ثاوية خلفها، وتعيد إليها حبيبها بعد تمثيلية مأساوية متقنة.

كانت غزالة تشعر أن روحها تنفلت منها، وأن قلبها يعتصر كمدا، وأن صفيحة فولاذية تجثو على صدرها فتلقي بها مغشيا عليها من الوجع. لم تظن يوما أن قطار حياتها سيتوقف بسرعة عند أول محطة. كانت تعيش آثار الصدمة في عنف ومرارة. كيف تخطفه الموت من حضنها؟ أم كيف تعيش الحياة من بعده؟ أم كيف ومن ينادي طه عندما يحتاج أمرا؟ كانت قد خططت لكل شيء في حياتها مع الفقيد حتى غربته التي ارتضاها في سبيل التحصيل العلمي في بلاد الشرق الآسيوي. كل شيء خططت له وتدبرته سوى الفقد.

تفرست في وجه الصغير طه الذي خلد إلى النوم بعد بكاء طويل بسبب ما رأى من بكاء أمه ونحيبها. لم يكن وهو في سن الثالثة مدركا لحجم المصيبة التي حلت ببيتهم الصغير. لا شيء أقسى على الطفل من أن يرى أقرانه غدا مع آبائهم يجرون، ويمرحون، ويأكلون الحلوى والمكسرات وهو محروم من تلك الدفقات من الحنان الأبوي. رأت غزالة في الصغير النائم قطعة من الغائب الحاضر. نسيت أن الصغير تخلق في رحمها الذي تشكلت فيه بلورات روحه وأنساخ معناه. نسيت أنه تربى في أحشائها، وتذكرت فقط تلك الكلمات " إن رحلت ابتسمي فأنا طه وطه ليس أنا". كانت هذه الكلمات تئن في أذنيها أنين المريض المنتظر حتفه. هل كان مدركا لسفره الذي ينبئ باللاعودة؟ تؤنب نفسها لأنها لم تحمل كلماته محمل الجد ساعة أحسها قبل أن يكتبها. كيف لها أن تنسى ما تعلمته في أصول الاشتقاق اللغوي والعلاقة الدلالية الرابطة بين الشعر والشعور؟ تزاحمت الأسئلة في رأس لم تعد تقوى على أمواج الأسئلة التي تجرف ما أمامها وتحيله هباء منثورا، وتزيل الحدود بين الأزمنة والفضاءات حتى تثبت قوتها وكينونتها في المطلق الزمكاني.

لما اطمأنت لنوم الصغير، أخذت هاتفها وترسمت طريق المصفحة الزرقاء علها تجد فيها ما يطفئ اللهيب المتقد بين ضلوعها. كادت هاته المصفحة تضيع منها بعد رحيل الفقيد. فبعد أيام من وفاته حاولت الإبحار في حسابه الأزرق كي تحسه وتبث إليه شكواها من سفره المفاجئ، لكنها فوجئت بحظر الحساب. لم تقو على ذلك، فالخسارة ثقيلة إذا فقدته في العالمين معا. اتصلت بمعارفه ومن لهم معرفة بمستغلقات التكنولوجيا لكنها عادت يائسة من نتيجة واحدة لا تتغير. لم تجد بدا من التوجه إلى إدارة مارك تبثها

شكواها كي تعيد وجوده الافتراضي. كفى للقلب طعنة غادرة أحالت فؤادها أشلاء ورمادا ينتظر البعث الفنيقي. إنها لا تتحمل طعن الفؤاد مرتين على الأثر. عادت هذه المرة بغنيمة الكسب الافتراضي بعدما رق قلب الإدارة لحال الشابة التي استحالت نضارتها ذبولا خريفيا لوجه صبوح تساقطت أور اقه دفقة واحدة.

أبحرت في عالم نذره صاحبه لأن يغدو بلا أسرار. عالم ما عدنا نتحرر من سلطانه بعدما أحكم قبضته علينا. صرنا عبيدا له لا نبرم ما هو حال ولا نحل ما يبرم. وقفت عند آخر منشور اته التي كانت نشاطا ثقافيا نظمه لفائدة أبناء الدوار قبل يومين من وفاته. استدعى للنشاط أصدقاء مثقفين لبوا الدعوة لصدق المبادرة التي تهدف إلى تمكين المستفيدين منها من ملكات الكتابة المسرحية. آآآآه لو علم أنه يكتب أقسى مأساة لها ولابنها الوحيد. ليته كان يعلم أنه يهيء لأعظم تراجيديا تعيشها شابة في بداية زواجها. ليته يعلم أن الزهرة التي أمدته بكل عناصر الحياة والجمال ذبلت، وما عاد ماء الحياة يرسم بهجتها وتفتحها. ليته يعلم أن المنزل الذي اقتنياه، وبدآ في تأثيثه وتجهيزه، وهما يؤثثان لأحلامهما فيه، صار خرابا يبابا بعده. ليته يعلم أنها عندما تصرخ في وجه الصغير طه، يستنجد به باكيا فيمزق أحشائها التي آوته مائتين وسبعين يوما.

ألقت نظرة على بعض المنشورات محاولة الربط بين أزمنتها ودلالاتها، عسى نقرة إعجاب هنا أو تعليقا هناك، أو إشادة هنا، أو تبجيلا هناك، أو توبيخا هنا وهناك تتراكم جميعها لترسم صورة مكتملة العناصر

والقسمات. كانت تنتظر البعث في أية لحظة؛ لذلك كانت تبحث في شظايا عالمه عن الأشلاء المتطايرة هنا وهناك. بادرت إلى الدردشات علها تجد فيها الخيط السحري المفتقد للربط بين الأشلاء. طالعتها محادثته الأخيرة مع صديقه إدريس الذي كان متوجسا من السفر البعيد لبلاد الشرق الآسيوي. راجعت الدردشة التي حملت أحلامه وأمانيه التي قضى عليها الموت. لم يركب صهوة المغامرة التي رسم طريقها و أنهج سبيلها.

- انظر يا صديقي في هذا الفيديو إلى ذلك الكوكب الياباني؟ هل رأيت شيئا مثل هذا في حياتك؟ هل رأيت تنسيقا وجمالا ونظاما مثل هذا؟

- ما رأيت مثل هذا..لكن ضريبته باهظة أيضا..فالاغتراب عن الأهل والوطن ليس أمرا يسيرا.

- الوطن يا صديقي حيث تحفظ كرامة المرء وتصان.. وما هي إلا ثلاث سنوات ونعود إلى الوطن بشهادة علمية تفتح لنا آفاقا واسعة.

- اليابان دفعة واحدة..لو كان الاغتراب في جغرافيا قريبة لكان أهون على التحمل.

- إنه سفرنا القدري يا صديقي..فأقبل ولا تدبر..وهل الحياة إلا رحلة مجهولة المطبات وسفر متواصل. توكل على الله.

- حسنا سأناقش الأمر مجددا مع زوجتي علها تقتنع فهي ترفض الأمر كلية. مع السلامة.

- أقنعها يا صاح فأنا لا أتصور سفري بدونك. مع السلامة.

ارتفعت شهقاتها وهي تنهي المحادثة. كان ينتظر السفر لإتمام دراسته العليا فإذا هي سفرة بلا عودة. أصر على السفر كالمرهق المتعب الذي أعيته سطوة المكان. سافر مغلق العينين عن هذا المكان وسائر الأمكنة في هذه الحياة. أخبرها قبل سفره أنه يخوض معركة الانتصار في وسط يعلن الحساد فيه كراهيتهم جهارا نهارا غير متوجسين من فضح نور النهار. كان يخوض معركة الكرامة التي تثبت قدميه في قلعة محروسة لا يسمح بدخولها حتى لمن فكز لغز طيبة. لكنه انسحب من المعركة ولم يعد. انسحب قبل أن يأتيها ببشارة الانتصار في حربه الضروس، وهدية النصر التي انتظرتها بشغف. لقد اختار مماتا يغيظ به العدا على الانبطاح تحت أقدامهم مترجيا الصفح والغفران. ترك لهم الأرض بما رحبت فليعيثوا فيها فسادا وليحقروا من أراد اقتحام أسوار مدينتهم الناقصة.

تركت غزالة الصغير نائما في فراشه. اندفعت نحو الغرفة التي كانت تأوي أسرار الزوج الراحل. كان يعتكف في محرابه ذاك ساعات طوال بين قراءة وتأليف نقدي. قبل أن يضيف إليهما نشاطا آخر هو التخطيط لحربه الضروس مع محاربيه. كان رجلا مسالما، لكنه يكره الظلم، ويقف في وجه حتى لو كانت حياته ثمنا لذلك. لم يتقبل تلك السهام الهوجاء الملتهبة الموجهة إليه في كل محفل كما في عالمه الأزرق المفضوح الأسرار. أليس من حق المرء أن يجتهد ويطمح لبلوغ أهدافه؟ أليست الجائزة مجرد تحفيز للكاتب وهي لا تستطيع خلق كاتب؟ مشاعر كثيرة باح بها في أوراقه المتوارية خلف الرفوف التي كانت متخفية حتى عن توأم روحه. تأثر كثيرا بتلك الحرب التي أعيته.

كان يظن الكتابة تمنحك كما القراءة حيوات أكثر من الحياة الواحدة، فإذا هي في عالم موبوء تسرق منك الحياة الوحيدة التي نذرتها للكتابة.

وقعت عيناها على ملف أزرق لم تره من قبل. بخطى مترددة تقدمت نحو الملف. أخذته بيدين مرتجفتين وعينين مسمرتين عليه. أحست بوخز في يديها في تلك اللحظة، أو لكأنها صعقة كهربائية لا تطاق. خالت الملف حديديا موصولا بتيار كهربائي. قاومت الصعقة، وفتحت بلهفة وخوف ذلك الملف الذي سرت زرقته في دمائها. وجدت فيه ورقة واحدة مكتوبة بخط يده عنونت بـ" النهاية"

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد حزمت حقائبي وعقدت العزم على السفر الذي لا مفر منه. أتاني والدي في المنام يمد لي يده للحاق به في عالمه الأخروي. علمت وما خفي ذلك على ذي عقل سليم أن المال والأهل ودائع، ولا بد يوما أن ترد تلك الودائع. هاقد حان ذلك اليوم الذي كنت أظنه سيطول ويبعد به اللقاء فإذا به مستعجل للقائي اشتياق العشيقين للقاء على ضفة الوادي لتبادل عبارات الغزل. أريد الموت في بلاد بعيدة وغريبة عني حتى لا تبكي غزالتي ولا تحزن وهي ترى جثتي. أرجو أن يكون في موتي راحة لي لا للناس من حولي. لست ممن يخيفه هذا القادم القاصم فما هو فاعل بي غير انتشالي من حياة ناقصة تسلب من المرء أكثر مما تمنح، وتزين له المكروه، وتحببه إلى نفسه فيهيم على وجهه في غيابات

الشهوات التي تلقي به في بحر لجي. أريد أن أرى موتي هناك في ذاك المكان البعيد الغريب، وأن أتأمله وأرى قسمات محياي وهي تستقبله وحرارة جسدي وهي تحتضنه. لا أريد موتا يخطفني دون أن أعرف. الموت الذي أراه اليوم وأشد إليه حقائبي موت ضرب لي موعدا قبليا ودعاني لتوديع الأهل والأصدقاء".

ذرفت عينا غزالة قبل أن تتم تأبين الفقيد نفسه في هاته الرسالة. تساءلت مع نفسها عن السبب الذي جعله يخفي عنها إحساسه ذاك بقرب الفاجعة. لقد تعاهدا على المضي معا في هاته الحياة فكيف قرر السفر وحيدا هاته المرة تاركا وراءه شلالا من الذكريات والأحزان. عادت لإكمال قراءة التأبين الذي تبلل بدموع حارقة.

" أعرف يا عزيزتي أنك تقرئين كتابي هذا الآن في محرابي الفكري، وتذرفين دمعا عاهدتك ألا يذرف يوما مادمت حيا. لا أستطيع الآن رده فهو أقوى من أن يصده جسم يأكله الدود مواريا الحياة في حفرته القصية. اعذريني فلم أستطع اصطحابك في رحلتي النهائية هاته. لم يكن ممكنا أن نترك الصغير طه لصروف الزمن تتقاذفه وهو الصغير الذي يحتاج رعايتك وسهرك وتضحياتك".

والختام سلام.

## هروب صغير

الحافلة تخرق فجاج جبال الأطلس المتوسط.. وأطفال على الطريق يعرضون عسلا وفاكهة للبيع.. وشيوخ يرعون الأغنام في السفح.. و أنا منشغل بهاتفي الذكي والإبحار في عالمه الأزرق.. وأمامي في إحدى الصفحات قصة رجل ثري.. بدأ حياته راعيا للأغنام وهرب من قريته بعد أن خاف عقاب أبيه لما ضاعت منه شاة.. وصل إلى المدينة وضوضائها واشتغل بورشة للبناء، ثم تقدم ليصبح "معلما" فمقاولا، فصاحبا للمقاولة.. تطور مشروعه يوما بعد يوم ليصبح صاحب مليارات في العقار والأسواق الممتازة والاستيراد والتصدير.. امتنع عن بيع الخمور في سلسة أسواقه التجارية.. ورفض الاستوزار في أكثر من مرة عرض عليه فيها المنصب.. كل هذا ناتج عن هرب من عقاب طيش شاة القطيع.

تعود بي قصة الرجل إلى هربي الأول من البيت.. كنت في سن السابعة عشرة لما دخنت السيجارة الأولى.. اكتشف أبي الأمر رغم أنني احتطت باستبدال الملابس وشراء العلكة.. بلغ صراخه مسمعي وأنا أهب بدخول البيت.. أحسست شرارات الغضب تتطاير من عينيه مما اقترفت شفتاي.. عدت القهقرى إلى المجهول ولا أحمل معي سوى عاقب السيجارة دليل إدانتي.

غادرت البلدة بعدها وقصدت المدينة فردوس الفقراء والمحرومين.. اشتغلت بمسح الأحذية، وحمل الأمتعة، وغسل الأواني في المقاهي.. قضيت ليالي على حصير من السعف الخشن.. تحملت مهانات أصحاب أحذية سالفاتور وجونستون وميريل.. كل هذا بسبب سيجارة واحدة أصبحت علب سجائر بعد ذلك.. لم تشفع لي مع إعصار غضب أبي سنوات "المسيد" التي قضيتها في حفظ القرآن.. ولا تلك الساعات التي كنت أقضيها في ورشة نجارته حتى أوفر عليه يدا عاملة ما عادت تقنع بالصنعة مقابلا لجهدها في الورشة.

كنت قبل ذلك اليوم فتى صالحا أصلي في المسجد.. حفظت عشرة أحزاب من كتاب الله في "المسيد".. قرأت السيرة وحفظت الأحاديث ومتون ابن مالك.. لم أسرق ولم أكذب.. ما هي إلا نزوة عابرة تخفي وراءها فضول الاكتشاف.

الحافلة تخرق فجاج جبال الأطلس المتوسط لا شيء يوقف زحفها.. كل شيء يتزحزح من مكانه سنة الله في الأرض.. تتقدم الحافلة صوب موطني الأول موطن الولادة والموت.. ولادة قيصرية سلمت فيها أمي روحها لخالقها.. وموت سلمت فيه نفسي للمدينة هربا من غضب يحيل ما أمامه ركاما.. توقفت الحافلة في محطة الريش كي تضع أكواما بشرية وتقل أخرى..

صعدت الحافلة ألوان من المآسي.. الرجل الأبرص بعبارات الاستجداء التي لزمت مهنته منذ زمن:

- " اااا المحسنين اااا المومنين..عاونو هاد البصير..راه البصر ضعيف والصحة قليلة".

نزل الرجل الأبرص من الحافلة، وصعد بائع الكتيبات الدينية ذو اللحية الكثة.. نظرت إليه، قبل صعوده، من زجاج النافذة.. كان ينتظر نزول الرجل الأبرص كالممثل الذي ينتظر دوره خلف الستار دون أن يستبق الأحداث.. نزل الرجل ذو اللحية الكثة ولم تلق بضاعته قبول المسافرين رغم فن الخطابة التي عرض بها السلعة.. صعد الصنف الموالي وكان فريقا لا فردا.. شباب في مقتبل العمر يبيعون أكياسا بلاستيكية من التفاح الذي تشتهر به المنطقة.. لقيت سلعتهم إقبالا عند المسافرين ربما لثمنها البخس مقارنة بثمنها في الأسواق أو لوظيفة التفاح في هضم المرارة التي تجرعوها في مدينة الاغتراب.

صعد سائق الحافلة إلى مقعده ليواصل المسير بعد أن ملأ بطنه بالطعام المجاني الذي يوفر له طول الطريق.. ينطلق من جديد، ويتضاءل حجم الأبرص، والرجل ذو اللحية الكثة، وشباب التفاح حتى يختفوا.. يسود لسان جديد داخل الحافلة غير اللسان الذي كان سائدا قبل محطة الريش.. تخترق الحافلة الطريق المستقيم بعد لف ودوران الجبل.. وجوه جديدة على الطرقات علت السمرة بشرتها لقساوة الطقس والعيش.. أرسلت الوجوه علامة سيميائية على مكان الهروب الأول حتى ومسيرة ساعتين أمامنا قبل

الوصول.. يشترك الناس في هاته الجغرافيا في الطيبة ومكارم الأخلاق.. كما يشتركون في سمرتهم التي أحالتها شمس الهجير إلى سواد محلى ببعض البياض.

تفحصت وجوه الراكبين فألفيتها محملقة في هواتفها الذكية.. كانت الأشعة الزرقاء ترتسم على وجوههم.. أضحى عالمهم واحدا ومشتركا.. حتى الصغار كانوا يمسكون بألواح إلكترونية يلعبون بعض الألعاب عليها.. لم أكن الهارب الوحيد من العقاب.. تجمهر الناس حول الهروب من العذاب الواقع إلى الحلم المفترض.

صورة أبي وهو يبحث عني في المخابئ التي اعتدت التخفي فيها تمثل أمامي.. كانت محرابي الذي يأويني كلما اقترفت ذنبا قبل أن تتواطأ مع أبي وتبوح له باختبائي.. لو ضمنت وفاءها في عدم البوح ما هربت خارج أسوار القرية.. أعود اليوم إلى أبي بعد هروب خمس سنوات وقد نحل جسده وخفض صوته وارتعدت فرائسه كما حكى لي أحد الوافدين من مدينتي الصغيرة.. أعود إليه بعلبة السجائر في يدي فما عدت قاصرا أمام عجزه.. أعود إليه لا كما عاد الفار من ضياع الشاة.. هربت معدما وأعود معدما فزمن الاغتناء قد ولى.

تطوي الحافلة صفحة جبال الأطلس المتوسط، وتخترق الصحاري المقفرة.. يتساءل شباب المنطقة عن السبب الذي أغوى أجدادهم للاستقرار في هذه الصحاري.. لا خضرة ولا ماء، وحده الخلق الحسن.. لفظتني البلدة هاربا من عقاب السيجارة الأولى.. لكنها لفظت غيري دون خطيئتهم الأولى.. لفظتهم فبنوا حضارة المدن انتقاما منها.

سرحت في أفكاري أغازلها تارة وأهجوها تارة.. قطع مسلسلها صوت مساعد السائق:

- اصحاب أرفود..على سلامتكم.

أصابتني رصاصة النداء في مقتل.. كانت الرصاصة الأخيرة التي تردي من أصابته صريعا.. قالوا عن أصل تسميتها إنها تعني "الوفود" القادمة إلى هذا المكان.. وقالوا إنها نداء " الرفود" الذي يدل في اللهجة المحلية على عملية رفع الثياب لئلا تبتل بماء النهر المعبور.. فأي صدق لكل تلك الرو ايات وأنا لا أرى اليوم غير الوفود الهاربة.. ولا أرى نهرا ولا جدولا حتى يشي باستمرار الحياة في هاته الجغر افيا القصية..

نزلت من الحافلة وتقدمت الخطى نحو البيت أقصده.. لم يتغير شيء في المدينة الصغيرة.. شارع وحيد يشبه ملعب الكولف.. أشجار "الحياة" التي غرسها المستعمر الفرنسي على جنبات الشارع كي يستظل بها الناس.. أوهمهم أنها أشجار حياة لكنه جعلها شاهدة على إبادته للأهالي في معركة بوكافر.. دراجات عادية يستعيض أصحابها عن المكابح بإيقاف دوران العجلة بأقدامهم.. نساء يلتحفن إزارهم الأسود الذي لا يبدي غير عين واحدة تبصر ما لا تبصره الأعين.. وسلع عند البقال ضاعت ملامحها لما علاها من غبار الزو ابع الرملية التي تزور المدينة في كل حين.. لا شيء تغير بعد سبع سنوات من الغياب.

وصلت البيت الذي أبصرت فيه الظلام وغاب فيه نور الأم.. هو الآخر لم يتغير كالمدينة الكئيبة التي تحتضنه.. حمرة واجهته الباهتة تلين فؤاد الناظر إليه.. من نظر إليه حسبه مهجورا فكل ما فيه يبعث على الموت.. رحل النور الأول عنه ففقد نصف عمره.. دخلته المرأة الثانية فأخذت بعضا من عمره قبل أن تلقي الباقي في يدي و أنا فار إلى مدينة المجهول.. تخلصت منه في منتصف الطريق واستخرجت معه شهادة الوفاة.

تقدمت نحو باب البيت الذي لم يكن مغلقا كما عهدته.. دلفت البيت دون إذن صاحبه.. تعلمت في "المسيد" ألا أدخل بيتا حتى أستأذن وأسلم على أهله.. كيف أستأذن في دخول بيت شهدت وفاته منذ خمس سنوات؟؟ هل نستأذن على الموتى في قبورهم قبل الدعاء لهم؟؟ كانت الفوضى تعم المكان وبعض الصراصير تتغذى على بقايا الطعام فوق المائدة.. التقطت خياشيمي رائحة دخان السجائر الذي ألفته منذ سبع سنوات.. قد يخفى عليها في كثير من الأحيان رائحة البيتزا أو السوشي أو الطاجين، لكن رائحة الدخان لم تخف عنها يوما حتى في فصل الشتاء ونزلات البرد التي تعطل أدوار الحواس.. اتجهت نحو الغرفة التي كانت سدا منيعا فيما مضى..غرفة أبي كانت سرا من الأسرار الذي لم أتجرأ يوما على اقتحام عذريته.. دلفت الغرفة التي ظلت سرا طيلة السنوات الماضية.. لمحت خلفها سريرا ورجلا ممددا عليه وبيده عقب السيجارة الأخيرة.

## طول انتظار

كان سي حميد يقطن مع زوجته شقة في الطابق الثاني بحي الملاح. مضت سنوات على زواجهما دون أن يرزقا بنعمة الولد الذي يخلفهم في الأرض. لكن لا أحد منهما استطاع أن يكسر قلب الآخر بالتخلي عنه. رضيا بقضاء الله وقدره في انتظار الفرج الذي يملأ البيت حركة بعد الجمود الذي أصابه. لم تكن زينة المال لتملأ فراغ زينة الولد عندهما، لذلك فقد كانا يعاملان ابن الجاريعقوب معاملة الابن. فقد كان يقضي معهم جل يومه بعد عودته من المدرسة.

كان الزوجان يتابعان العلاج عند الطبيب، خصوصا أنهما لم يبلغا بعد سن اليأس. أخبرهما في إحدى زياراتهما له أنهما قادران على الإنجاب لكن بشرط أن يرتبط كل واحد منهما بزوج آخر. وقع الخبر عليهما كالصاعقة.

كيف يمكن لحميد أن يفتح عينيه على أنثى أخرى غير زوجته رحمة؟ بل وأي ألم يعدل معاشرة رحمة لزوج غير حميد؟ قطع الطبيب توارد الخواطر هذا، وأخبرهما أنه الحل الوحيد الذي توصل إليه بعد كل التحليلات الطبية التي أجراها لهما.

لم يكن مشوار العودة إلى البيت عاديا. أطبق الصمت طوال الطريق حتى توقفت السيارة أمام مبنى العمارة التي يقطنانها. نزلت رحمة من السيارة وصعدت الدرج في تؤدة. فتحت الباب ودخلت الشقة وهي تحبس أنفاس بكاء شديد استحكمته طوال طريق العودة. صعد حميد بعدها الدرج وألفى باب الشقة مفتوحا. دلف الشقة ووصل إلى مسمعه ذاك النحيب القادم من غرفة النوم. دخل الغرفة على الزوجة التي غمرت وجهها في سريرها. جلس حميد بمحاذاة السرير وربت على كتف زوجته قائلا:

- لا تبك يا عزيزتي. إنها مشيئة الله تعالى، وكل شيء عنده بمقدار.. لعله يحدث بعد ذلك خيرا.

- حميد، هل ستتخلى عني يوما ما كي تنجب طفلا من صلبك، يحمل اسمك واسم عائلتك؟

- أي حماقة هاته يا عزيزتي. طبعا لا.. أنت الزوج والولد والدنيا بما فيها. ولا تنسي أنك تستطيعين الإنجاب أيضا ( ضحك ضحكة مشوبة بحزن داخلي عميق).

ارتمت في حضنه وزاد نحيبها وعانقته بشدة كمن يخشى عليه من برد الشتاء. وقل نحيبها قبل أن تستسلم للنوم في حضنه. وضعها على السرير،

ونزع حذاءها، وعدل من وضعيتها حتى تستكين لنوم مريح بعد يوم حافل بالمشاهد المتسارعة.

عاند النوم في تلك الليلة حميد، تقلب في فراشه يمنة ويسرة دون أن يفلح في طرد الأرق الذي لازمه. غادر سريره إلى المطبخ. أعد فنجان قهوة وراح إلى الشرفة المطلة على حديقة الحي. جلس إلى كرسيه ذي الشكل المقوس يترنح به إلى الأمام والخلف، ويتأمل في نجوم السماء التي تغالب كثافة السحاب التي تلاحقها وتحجب عنها الظهور. تطلع إلى الشارع الموارب لحديقة الحي. لا شيء غير الصمت والفراغ. غازلته من الخلف ستارة النافذة التي حركها نسيم مؤذن بقرب الربيع. فكر فيما قاله الطبيب. جمع الألم والأمل بين ضلوعه، فلا هو يستطيع العيش بدون الولد، ولا هو يستطيع فراق رحمة حياته. غادر الشرفة عائدا إلى موضع الأرق الأول وكلمات الطبيب تتردد على مسامعه دون أن تقدم له خيارا معقولا. حاول النوم ثانية لكن الأرق عانده مرة أخرى. احتفظ بعينين مفتوحتين على سقف الغرفة. أخذ ينصت إلى أنفاسه التي بدت غير منتظمة الليلة عكس رحمة جواره التي تناهت أنفاسها المنتظمة إلى مسمعه.

أشرقت الأرض بنور ربها، وغازلت عيني رحمة أشعتها القادمة من النافذة. تفرست وجه حميد الذي ارتسمت عليه دمعة مهراقة على خده الأيسر. تساءلت عن زمن انسلالها من مقلته؟ أهي معاناة داخل الأحلام؟ أم تراها دموع اليقظة التي سبقت استسلامه للنوم. تذكرت قولا قرأته عن دموع الرجال المتخفية عن أعين النساء بأنها الدموع الأكثر صدقا. دموع

تهوي بالرجل من كبريائه إلى إنسانيته الأولى التي تلخصه في كتلة المشاعر والأحاسيس. آه ما أقسى دموع الرجال وما أشد وقعها على قلوب النساء ! وما أقسى الأيام الأخيرة التي غاب فيها جاد ابن يعقوب عن البيت !

صار البيت موحشا بعد غياب جاد عنه. سألت رحمة والدة الطفل عن سبب عدم زيارة جاد لهم في الأيام الأخيرة. فكان جوابها حركة من الكتفين تعوض قول اللسان: - لا علم لي. لم تلح عليها رحمة في السؤال، فلا بد لها من لزوم حدودها، وهو في الأخير ليس ابنها كي تحاسب تأخره أو غيابه عن ناظريها.

هبطت الدرج وخرجت من باب العمارة وحركة أم جاد تزيد أسئلتها. قطع تفكيرها شجار بين طفلين من بعيد. اقتربت كي تتحسس من هما. إنه ابنها جاد يختصم مع محمد صديقه. حاولت أن تفك تشابك الأيدي بين الطفلين. وبعد أن أفلحت في أمرها تناهت إليها سبة محمد لجاد: - " ا ولد الحلوف". حاول جاد أن ينفك من يدها، ويهاجم خصمه اللدود لكنها أحكمت سيطرتها عليه. بعدها، نظر إليها نظرة بعينين يملأهما اللهب. وخاطبها:

- ابتعدي عني. لا تمسكي بي. دعيني وشأني. أم أنك تدافعين عن ابن ملتك.

أصابتها حركة جاد وسهام الطفل الصغير في مقتل.. لم تصدق ما سمعت من الطفل الذي نام في أحضانها ليالي و أياما.. شتيمة محمد وكلمات جاد لا يمكن أن تكون كلمات صغار.. من تراه همس في أذنيهما بهاته الأفكار الشيطانية؟ كيف لملكين صغيرين أن يربيا على الكراهية وينسيا لحظات اللعب التي وحدت قلبيهما؟ انفلت ابن يعقوب من يدها وهي سارحة في

أفكارها. انفلت منها الولد و انفلت معه أمل تعويض الفقد.. ظنت لسنوات أن الابن الذي نام في سريرها، واختارت له ملابس العيد سيعوض الحرمان الذي تعيشه.. هاهو الآن يهجرها ويرفض اللعب في مسرحية صنعت شخوصها وحوارها.

توجهت إلى سيارتها وصورة الطفلين تلاشت أمام صورة الطبيب التي داهمتها.. كانت كلماته سكينا انغرس في صدرها وما انتشلته بارقة أمل تبدد مخاوف الفقد والحرمان.. تتذكر الغرفة التي زينتها بلعب الأطفال وبألوان قوس قزح.. تتذكر إبحارها في عوالم النت باحثة عن أسماء البنات والأبناء الجميلة.. تداعب ذاكرتها همسات حميد " أريد طفلة نسخة منك حبيبتي".. تهوي بها تلك الكلمات في بحر من الأحزان وهي لا تستطيع تحقيق حلمه.

خلعت رحمة عنها عباءة التردد وقصدت امرأة عجوزا في أحد الدواوير المجاورة.. سمعت من إحدى صديقاتها أنها امرأة صاحبة بركة وتطرد النحس وتشفي السحر والعين والحسد.. كانت مستعدة لدفع كل ما تملك لتأتي السعادة إلى مائدة بيتها.. كانت تحس أن خيوط السعادة التي نسجت علاقتها بزوجها بدأت تنصرم.. أصبحت تعيش في شك وحيرة وعذاب وترقب.. لم تعد متأكدة من معاملة حميد لها أهو حب أم إشفاق.. عودته المتأخرة إلى البيت في الآونة الأخيرة ألهبت قلقها دون أن تسأله عن سببها.. لم ترغب في التضييق عليه وهي تعلم ما يحس به..

وصلت إلى بيت العجوز صاحبة البركة.. ركنت سيارتها أمام البيت الذي يحمل أملها الأخير.. هاهي الآن تحمل مشكلتها إلى عجوز غريبة عنها وتأمل معها الخلاص.. تأملت البيت الذي سيقضي بفرحتها أو يقضي عليها إلى الأبد.. لم تخش الموت فهو يريحها من عذابها.. أما العيش في دوامة الحزن والانتظار فهو الموت البطيء الذي يعذب صاحبه ويقطعه أشلاء تتغذى عليها الأفواه الجائعة. نظرت إلى باب البيت وحاولت أن تترجاه ولكن الكلمات لم تسعفها.. دمعت عيناها وهي تنظر إلى الباب تارة وإلى بطنها تارة أخرى.. نظرت إلى بطنها متسائلة متى ينتفخ كي تمرر يدها عليه.. صنعت له حياته قبل أن ياتي كالملك الذي تفترش له الزر ابي الحمراء قبل قدومه.

تقدت نحو باب الأمل الأخير تطرقه.. فتح له دون أن ترى خلفه إنسيا.. بركة المكان تشرع الأبواب أمام السائلين والمحرومين.. بخور متصاعد يملأ المكان.. ابتهالات صوفية لصوت نسائي تناجي السماء.. إنه صوت العجوز صاحبة البركة.. قبل أن تجلس رحمة نهرتها العجوز، وصدتها عن الجلوس قبل استئذان " اهل المكان"

- طلبي التسليم من اهل المكان.

ردت رحمة وقد عادت إلى حالة الاستواء:

- التسليم ا اهل المكان.

سمحت لها العجوز بالجلوس بعد ذلك مبشرة إياها بقضاء حاجتها:

- لا تخافي ا بنتي.. الداخل للمكان قانط والخارج غانم.. التسليم ا سيادي التسليم.

- التسليم..

- انت محسودة ومحضية.. تابعاك العين التحتية.. ترابك مردوم فالبير المنسية.. فيها المعقود من الدرية.. فسيخ ورماد القبور المبنية.. طلبي التسلييييم.

- التسليم ا سيادي التسليم..

سرحت رحمة في المبخرة التي تبعث دخانا يلامس سقف البيت.. سرحت في ما قالته العجوز وتأكدت

لها البركة.. لم تخبرها بعد عن مقصود زيارتها وهاهي ذي تضع يدها على جرها الدامي.. هاهي العجوز تتحدث عن الولد الذي حرمت من حضنه لسنوات.. ما كانت خريجة جامعة العلوم لتصدق مثل هاته العجوز فيما قبل.. آمنت بالعلم سنوات طويلة وعادت الطبيب وتابعت العلاج.. هاهي ذي تريح قلقها عند هاته العجوز الأمية صاحبة البركة..

تركت العجوز لرحمة هذه الفسحة من التأمل قبل أن تسألها:

- كلامي صحيح ولا صايرة نخرف ا الطالبة اهل المكان؟

ردت عليها رحمة:

- كلامك صحيح ا للا..جيتك باش تعونيني.

- العون هو الله ا بنتي.. طلبي التسليم تخرجي بحاجتك مقضية.

- التسليم ا اهل المكان

خرجت رحمة من بيت العجوز بعدما وصفت لها ما تفعل حتى تطرد العين والحسد والسحر.. خرجت مطمئنة وقد ألقت بأوزارها في مبخرة العجوز.. تناثرت أحزانها مع الدخان المتصاعد.. ألقت تلك الغيامة التي كانت

تجثو على صدرها.. أحست بقرب الفرج كما لم تحسه من وصفات الطبيب وأدويته الكيماوية التي تسبب لها قرحة في المعدة.. شغلت محركة السيارة و انطلقت تطوي الطريق القصيرة متجهة إلى بيتها.

وصلت بيتها ولم تهتم لرؤية جاد في الدرج فقد اقترب حلمها من التحقق.. ابن يتخلق في رحمها يبر بها ويكون مسلما كآبائه وأجداده.. لم تعرف معنى للاختلاف الديني يوما إلا على يد الأطفال.. لم تنظر يوما إلى الطفل النائم على صدرها أنه يهودي.. جعلت قيم التسامح والحب فوق أي اعتبار.. آمنت أن الإسلام والمسيحية واليهودية ديانات سماوية من مشكاة واحدة.. انفطر فؤادها بعد الذي سمعت في شجار محمد وجاد.. وباتت مصممة أكثر من ذي قبل على إنجاب الابن المسلم.

مرت الأيام سريعا وعادت البهجة إلى بيت حميد ورحمة في انتظار الفرج الموعود.. ما عاد حميد يسهر خارج البيت ولا يتأخر في الدخول.. عودة إشراقة وجه رحمة أعادت حميد إلى سالف عهده.. لم تخبره عن زيارتها للعجوز. لكنه كان مسرورا لعودة البسمة إلى وجه زوجته.. خرج كعادته إلى شرفة البيت لاحتساء قهوته الصباحية المعطرة بالأعشاب.. شاركته رحمة احتساء القهوة.. كانت تنظر إليه وعيناها تملأهما الغبطة كالمراهقة التي تبصر فارس أحلامها لأول مرة.. أحس حميد بمذاق القهوة أحلى وقد عطر بتلك النظرات العاشقة.. قلب صفحات الجريدة.. داهمتها صورة في الصفحة الخلفية.. إنها تعرف هذا الوجه جيدا.. أعادت النظر إليها وقد اتسعت نظرة عينيها هاته المرة لتشمل العنوان المكتوب بالخط الغليظ "

عصابة في النصب والاحتيال تسرق جيوب ضحاياها". وقعت مغشيا عليها أمام دهشة وخوف الزوج.

خرج الطبيب من الغرفة التي كانت ترقد بها رحمة.. وعلامات الفرح بادية على أساريره..

- سي حميد مبروك عليك.. المدام حامل.

- حا حا حامل.. أأنت متأكد يا دكتور؟

- آه ا سيدي متأكد.. وهي في شهرها الثاني.

دمعت عينا حميد فرحا.. سجد في مكانه حامدا الله على الخبر السعيد.. طال الانتظار وهاهو ذا الفرج يأتي.. أخيرا سيتحقق حلمه ويصبح أبا من المرأة التي أحبها وبنى حياته معها.

- دكتور هل يمكن أن ادخل لأرى رحمة..

- نعم يمكنك ذلك..إنها بحالة جيدة

دلف حميد غرفة زوجته..طالعه لون وجهها الشاحب المشوب بدموع حفرت الخدين..تفهم دموعها فهي كدموعه فرحة بالرجاء المنتظر.. دموع للحظة طال انتظارها.. دموع لكائن جديد قادم ليملأ البيت بهجة وغبطة بعد سنوات عجاف من الحزن الظاهر تارة والخفي تارة أخرى.. مسح دموعها بيديه:

- لا نريد دموعا بعد اليوم.. ألم أقل لك إن بعد العسر يسرا

- ولكن العجوز...

قاطعها قبل أن تتم حديثها:

- لا عجوز ولا شيخ..لا أريد سماع شيء غير نبضات قلبك التي طال عهدي بها.. يجب أن تتغذي جيدا ولا تبذلي أي مجهود.. انظري إلى شحوب وجهك.. إنه من نقص التغذية يا عزيزتي.. عديني أن تتغذي جيدا من أجلك ومن أجل بنتنا الجميلة التي تشبهك..

ابتسمت وبريق عينيها عاد ليشع من جديد:

- أو ولدنا..

- أيا كان يا حبيبتي.. هو فضل من الله ونعمة.. يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور.

# الفهرس


| | |
|---|---|
| نــقرة إعجــاب | ٧ |
| وهم الشـــهادة | ١٣ |
| فرح الفيـس- اب | ١٩ |
| عيـالات الحــومـة | ٢٩ |
| صخــرة سيزيف | ٣٧ |
| خلــف القــضــبان | ٤١ |
| تلـــك الرائــحة | ٤٧ |
| إكـليل الجبــل | ٥٣ |
| أعقــل المجــانــين | ٦١ |
| جـــائزة المــوت | ٦٩ |
| هروب صغير | ٧٩ |
| طول انتظار | ٨٥ |
| الفرس | ٩٥ |
| رسالتنا | ٩٦ |

## رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017